بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة النمل

(كاملةً)

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

جمع وإعداد

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

البريد الإلكتروني

sa.ma22@hotmail.com

كانت البداية بفضل الله : ١ / رمضان / ١٤٣٦هـ

مقدمة

- **سورة النمل مكية .**
- **من أغراض السورة إعجاز القرآن ، وذكر قصص بعض الأنبياء ، بإيجاز في البعض وإسهاب في البعض .**
- **تحدثت بالتفصيل عن قصة داود وولده سليمان وبلقيس .**
- **وذكرت قصة سليمان مع النملة ومع الهدهد ومع ملكة سبأ .**
- **سميت بذلك : لاشتمالها على قصة النملة التي نصحت بقية النمل ، واعتذرت عن سليمان وجنوده .**

بسم الله الرحمن الرحيم

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)) .

[النمل : ١-٣] .

(**طس**) من الحروف المقطعة ، وقد سبق معناها والخلاف في ذلك ، وأن الراجح أنها حروف مقطعة لا معنى لها ولكن لها مغزى وهو التحدي والإعجاز .

ورجح هذا القول ابن كثير في تفسيره فقال :وقال آخرون إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين ، وإليه ذهب الشيخ أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية .

وقد رجح هذا الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان حيث قال بعد أن ذكر الخلاف : أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو : أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله .... **ثم قال رحمه الله** : ووجه استقراء القرآن لهذا القول : أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وأنه حق ، قال تعالى في البقرة (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) ، وقال في آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) ، وقال في الأعراف (ألمص كتاب أنزل إليك) ، وقال في يونس (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) ، وقال في هود (ألر كتاب أحكمت آياته ..) ، وقال في يوسف (ألر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً) .ثم ذكر رحمه الله بقية السور

ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال بعدما رجح هذا القول : ... أن هذا القرآن لم يأت بكلمات ، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر ، وإنما هي من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر ، ومع ذلك فقد أعجزهم

– وأما قول من قال إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور ، **فهذا ضعيف** ، لأن الفصل حاصل بدونها .

– وقول من قال: بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذا تواصوا بالإعراض عن القرآن إذا تلا عليهم، وهذا ضعيف، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها .

(**تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ**) أي هذه آيات القرآن .

- (**وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**) أي بين واضح ، مظهر للحق من الباطل ، كما قال تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ) .

بين في نفسه ، بين لغيره الحق ومظهره .

فالقرآن أظهر كل شيء يحتاج إليه الناس في دينهم ودنياهم .

- **قال القرطبي** : ووصفه بالمبين لأنه بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده .
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (المبين) إما من أبان المتعدي أي مظهر ما في تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب أو سبيل الرشد والغي أو نحو ذلك ، والمشهور في أمثال هذا الحذف أنه يفيد العموم ، وأما من أبان اللازم بمعنى بأن أي ظاهر الإعجاز أو ظاهر الصحة للإعجاز وهو على الاحتمالين صفة مادحة لكتاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة.

- **قال ابن عاشور** : فالمبين أفاد معنيين أحدهما : أن شواهد صدقه وإعجازه وهديه لكل متأمل ، وثانيهما : أنه مرشد ومفصِّل.
- ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو يبينه للناظرين فيه ، وتأخيره هنا عن القرآن باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر عليه باعتبار الوجود الخارجي فإن القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخر عن اللوح المحفوظ ولا يخفى أن إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر.
- ووصف القرآن بالكتاب :
  - لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ : كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) .
  - وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ).
  - وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، ونقرؤه من هذه الكتب .
- **قال ابن عطية** : وعطف (الكتاب) على (القرآن) وهما لمسمى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين ، فالقرآن لأنه اجتمع والكتاب لأنه يكتب

قال بعض العلماء : أمّا تسميته بـ(الكتاب) ففيها إشارة إلى جمعه في السطور، لأنّ الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ؛ كما أنّ في تسميته بالقرآن إشارة إلى حفظه في الصدور .

- **قال أبو حيان** : وإذا أريد به القرآن ، فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى ، لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة ، من حيث أن مدلول القرآن الاجتماع ، ومدلول كتاب الكتابة.
- من أسماء القرآن أيضاً : **الفرقان** ، كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، وقال تعالى (وأنزل الفرقان) .

وسمي بذلك : **قيل** : لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، **وقيل** : لأنه نزل متفرقاً في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة ، **وقيل** : الفرقان هو النجاة ، وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة ، وكل هذه الأقوال صحيحة .

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر : إنه محتمل معنيين :

أحدهما : أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه .

والآخر : أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك ، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه .

(**هُدًى**) يهدي من اتبعه وآمن به وعمل بما فيه .

كما قال تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً) .

وقال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً)ى.

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام ، ويطلق هداه على الهدى الخاص ، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء ، وبيان الحق من الباطل ، والنافع من الضار ، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي : بينا الحق على لسان نبينا صالح ، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) . وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه ، ويكون سبب دخوله الجنة ، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) .

- وخصهم المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بآيات الله ، كما قال تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فخصهم بالإنذار لأنهم المنتفعون به ، وإلا فالإنذار للجميع .
- قوله تعالى (**هدى للمتقين**) وللمؤمنين كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) .
- قوله تعالى (**هدى للمتقين**) مفهومه أنه ليس هدى لغير المتقين، كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً).

(**وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) أي يبشر المؤمنين به المصدقين به المذعنين لأحكامه، يبشرهم بالجنة وبالنصر والتوفيق والعزة على الأعداء.

كما قال تعالى (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) .

وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً) .

وقال تعالى (وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً) .

ويدل على أنه يبشر بالنصر قوله تعالى (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ) .

- لا يكفي في تعريف الإيمان مجرد التصديق ، فالإيمان الموجود بالقرآن لا بد من قبول وإذعان ، أما مجرد التصديق لا يكفي ، فإن أبا طالب كان مصدقا بما جاء به الرسول ﷺ ، لكنه لم يذعن فليس بمؤمن [قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله] .
- يستفاد من ذلك : أنه كلما كمُل إيمان الشخص كمل اهتداؤه بالقرآن ، لأن الشيء إذا علق بوصف زاد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه . ويدل لهذا قوله تعالى (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) .
- أن من لم يكن مؤمناً فليس القرآن له هدى كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ) .
- البشارة هي الإخبار بما يسر ، وقد تطلق بما يسوء لكن بقرينة كما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) .

(**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**) يأتون بها على وجهها بأركانها وواجباتها ومستحباتها .

قال السعدي : لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .

- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .
- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بأدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .
- قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) يشمل صلاة الفرض والنفل .
- قوله تعالى (وَيُقِيمُونَ الصَّلاة) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين، ومما يدل على

عظيم منزلتها:

- أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج) .
- وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد ، وهذا يدل على محبة الله لها ، وعنايته بها سبحانه .
- أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف ، وأعظم العبادات بعد الشهادتين ، وهي عمود الدين

- الصلاة : عام يشمل الفريضة والنافلة .

(**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**) أي يعطونها مستحقيها كما في قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ...) .

الزكاة : هي : قدر واجب في مال مخصوص ، لطائفة أو جهة مخصوصة .

وسميت بذلك : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ) ، بل وتزكي المجتمع كله ، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء .

وسميت زكاة : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، وتطهر نفس الغني من الشح والبخل ، وتطهر نفس الفقير من الحسد والضغينة ، وتسد حاجة الإسلام والمسلمين .

كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

وقال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم .

ومن حِكمِها : تطهير أصحاب الأموال من الشح والبخل، تقوية روابط المجتمع ، تزيد المحبة والمودة بين أفراد المجتمع، وأيضاً فيها امتحان للنفس ، لأن المال محبوب للنفس ، والنفس تبخل به ، إعانة الضعفاء وكفاية أصحاب الحاجة ، وتكفر الخطايا وتدفع البلاء ، ومجلبة للمحبة .

- سميت بذلك لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب الزكاة .
- كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) .

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

قال السعدي : وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده ، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود ، وسعيه في نفع الخلق ، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان.

- **قال الشيخ ابن عثمين رحمه الله** : إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر ، لأن الله ذكرها بعد قوله (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).
- وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من صفات الرجال العظماء .

قال تعالى (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) .

- وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .
- قال ابن عاشور : والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقاً أو صدقة واجبة كانت على المسلمين ، وهي مواساة بعضهم بعضاً كما دل عليه قوله في صفة المشركين (بل لا تكرمون اليتيمَ ولا تحضّون على طعام المسكين) .

(**وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**) أي يوقنون بالدار الآخرة، وبالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار.

- الآخرة : يشمل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، من بعث وحشر وعذاب القبر وغيرها .
- **قال السعدي** : الآخرة اسم لما يكون بعد الموت ، وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان ، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل ، واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل .
- **وقال ابن عاشور** : والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة .
- الآخرة أي اليوم الآخر ، وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده ، ويتضمن البعث ، والثواب ، والعقاب ، والجنة ، والنار وغير ذلك مما يكون يوم القيامة .
- **قال ابن عاشور** : فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأن هذه المادة ، تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها ، كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان ، فلإيثَار (يوقنون) هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن ، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة لفظ (يؤمنون) بعد قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) .
- للإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة :

منها : الرغبة في فعل الطاعات والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم .

ومنها : الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم .

ومنها : تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها .

قيل : ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها ، فقد قيل عشرة من المغرورين : من أيقن أن الله خالقه ولا يعبده ، ومن أيقن أن الله رازقه ولا يطمئن به ، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها ، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم ، ومن أيقن أن الموت آت فلا يستعد له ، ومن أيقن أن القبر منزله فلا يعمره ، ومن أيقن أن الديان يحاسبه فلا يصحح حجته ، ومن أيقن أن الصراط ممره فلا يخفف ثقله ، ومن أيقن أن النار دار الفجار فلا يهرب منها ، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار فلا يعمل لها .

قال ذو النون المصري : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب.

- فضل اليقين ، **ومن فضائله** :

أولاً : سبب للإمامة .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

ثانياً : وأهل اليقين هم أهل الانتفاع بالآيات .

قال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) .

ثالثاً : خص الله أهل اليقين بالهدى والفلاح .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

رابعاً : سبب دخول أهل النار النار عدم يقينهم .

قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ).

خامساً : صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين .

قال ﷺ : (صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمان) .

سادساً : سبب لتهوين مصائب الدنيا .

فقد كان النبي ﷺ يدعو قبل أن يقوم من مجلسه : (...ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا) .

قال ابن مسعود : لو وقع اليقين في القلب لطار إلى الجنة اشتياقاً .

الفوائد :

١-أن القرآن آية لما تمضنه من الآيات والأخبار والإعجاز .

٢-أن من أسماء القرآن الكتاب .

٣-أن القرآن بيّن في نفسه مبين لغيره .

٤-أن القرآن هداية لمن تمسك به وعمل بما فيه .

٥-أنه لا يتم التبشير الكامل بالقرآن إلا لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأيقن بالآخرة .

٦-أن تضييع الصلاة والبخل بالزكاة ينافي الإيمان .

٧-أهمية الصلاة .

٨-أن الزكاة أهم الأركان بعد الصلاة .

٩-إثبات باليوم الآخرة .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)) .

[النمل : ٤ – ٦] .

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها .

(زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) أي حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم ، فيهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم) قيل : المراد : زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : المراد : أن الله زين لهم الأعمال الحسنة ، وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة ، فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج : معنى الآية : أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه
- عدم الإيمان بالآخرة سبب للعمى والحيرة .

(أُوْلَئِكَ) الذين لا يؤمنون بالآخرة .

(الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) في الدنيا والآخرة .

- **قال ابن عاشور** : قوله (أولئك) إشارة إلى المذكورين الموصوفين بالكفر والعمه وهو مبتدأ خبره (الذين لَهُمْ سُوء العذاب) يحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدنيا بأن يقتلوا أو يؤسروا أو تشدد عليهم سكرات الموت لقوله تعالى (وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الاخسرون) ويحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدارين وهو الذي استظهره أبو حيان ويكون قوله تعالى (وَهُمْ) الخ لبيان أن ما في الآخرة أعظم العذابين بناءً على أن (الأخسرين) أفعل تفضيل ، والتفضيل باعتبار حاليهم في الدارين أي هم في الآخرة أخسر منهم في الدنيا لا غيرهم كما يدل عليه تعريف الجزأين على معنى أن خسرانهم في الآخرة أعظم من خسرانهم في الدنيا من حيث أن عذابهم في الآخرة غير منقطع أصلاً وعذابهم في الدنيا منقطع.

(**وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**) أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

(**وَإِنَّكَ**) أي يا محمد .

(**لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ**) أي لتأخذ .

(**مِن لَّدُنْ**) من عند .

(**حَكِيمٍ**) في أقواله وأفعاله وأحكامه وأمره ونهيه .

(**عَلِيمٍ**) بكل شيء، يعلم الكليات والجزئيات، يعلم السر وأخفى، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) .

- علم الله كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه زوال ، بخلاف علم ابن آدم فهو مسبوق بجهل ويلحق بنسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

الفوائد :

١- أن الذي لا يؤمن بالآخرة ، يعمل فيظن أن العمل السيء حسناً (وهذه عقوبة له) .

٢- أن الذي يؤمن بالآخرة يستلزم أن يرى الحق حقاً ويرى الباطل باطلاً .

٣- أن غير المؤمنين حياتهم في شك وقلق .

٤- وجوب الإيمان باليوم الآخر بدليل عقوبة من لم يؤمن بها بهذه العقوبة العظيمة (يُزين له العمل السيئ) .

٥- أن القرآن من عند الله .

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).

(**إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ**) يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله، وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى (**إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ**) أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تتأجج وتضطرم .

- المراد بأهله هنا زوجته . عند مسيره من مدين إلى مصر .

(**إِنِّي آنَسْتُ نَاراً**) أي أبصرت من بعيد .

- **قال الرازي** : أما قوله (إِنِّي آنَسْتُ نَاراً) فالمعنى أنهما كانا يسيران ليلاً ، وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق ، ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال (إِنِّي آنَسْتُ نَاراً) .

(**سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ**) أي : عن الطريق .

- في سورة أخرى (لعلي آتيكم) والجمع بينهما : أولاً كان يترجى ثم قوي وجزم فقال سآتيكم .

(**أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ**) شعلة نار .

(**لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**) أي لأجل أن تصطلوا بها ، أي تستدفئون .

- يستفاد أن الليلة كانت باردة .
- **قال أبو حيان** : وكان الطريق قد اشتبه عليه ، والوقت بارد ، والسير في ليل ، فتشوقت نفسه ، إذ رأى النار إلى زوال ما لحق من إضلال الطريق وشدة البرد فقال (**سآتيكم منها بخبر**) أي من موقدها بخبر يدل على الطريق ، (**أو آتيكم بشهاب قبس**) أي إن لم يكن هناك من يخبر ، فإني أستصحب ما تدفؤون به منها ، وهذا الترديد بأو ظاهر ، لأنه كان مطلوبه أولاً أن يلقي على النار من يخبره بالطريق ، فإنه مسافر ليس بمقيم ، فإن لم يكن أحد ، فهو مقيم ، فيحتاجون لدفع ضرر البرد ، وهو أن يأتيهم بما يصطلون ، فليس محتاجاً للشيئين معاً ، بل لأحدهما الخبر إن وجد من يخبره فيرحل ، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام

(**فَلَمَّا جَاءهَا**) أي لما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً .

(**نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**) أي نودي من جانب الطور الأيمن بأن بوركت يا موسى، وبورك من حولك وهم الملائكة .

- **قال الماوردي** : وفي النار وجهان :

أحدهما : أنها نار فيها نور.

الثاني : أنها نور ليس فيها نار ، وهو قول الجمهور.

- **قال الشوكاني** : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار – هنا — النور .
- المنادِي هو الله كما قال تعالى (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ) .
- **قال الشنقيطي** : وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ إِلَى ظَاهِرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ فِي النَّارِ الَّتِي هِيَ نُورٌ مَلَائِكَةً وَحَوْلَهَا مَلَائِكَةٌ وَمُوسَى ، وَأَنَّ مَعْنَى : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ، أَيْ : الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ ، وَمَنْ حَوْلَهَا ، أَيْ : وَبُورِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَهَا ، وَبُورِكَ مُوسَى لِأَنَّهُ حَوْلَهَا مَعَهُمْ ، وَمِمَّنْ يُرْوَى عَنْهُ هَذَا : السُّدِّيُّ .
- **وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ** فِي الْكَشَّافِ : وَمَعْنَى أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، بُورِكَ مَنْ فِي مَكَانِ النَّارِ وَمَنْ حَوْلَ مَكَانِهَا ، وَمَكَانُهَا الْبُقْعَةُ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا ، وَهِيَ الْبُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ) ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ " أَنْ تَبَارَكَتِ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا " ، وَعَنْهُ " بُورِكَتِ النَّارُ " .

(**وَسُبْحَانَ اللَّهِ**) أي تنزه الله وتقدس الله الذي لا يشبهه أحد من المخلوقين .

- فالتسبيح : تنزيه الله عن كل عيب ونقص وعن مشابهة المخلوقين .

(**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثان .

- الرب : المالك المتصرف ، والعالمين كل من سوى الله ، وسموا بذلك لأنهم علم على خالقهم ، فكل ما في الكون علامة ودليل على ربوبية الله .

الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

قال الشيخ السعدي رحمه الله : وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

قيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) .

وقيل : العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **العالمين** : جمع عالَم .

قيل : مأخوذ من العَلامة ، لأنهم عَلمٌ على خالقِهم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر :

فواعجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحد الجاحدُ

وفي كل شيءٍ لــه آيـــةٌ تــدل على أنه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العِلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

- **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) .

- قال بعض العلماء : واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .

الثاني : أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

الثالث : أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ : (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء) .

الرابع : أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنيناً في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلاً غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية .

الخامس : أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغْيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة .

السادس : أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل ، كما قال : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

فثبت تعالى أنه رب العالمين ومحسن إلى الخلائق أجمعين ، فلهذا قال تعالى في حق نفسه : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(**يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله .

- الله : علم على ذاته تبارك وتعالى ، وكل الأسماء الحسنة تضاف إليه كما قال تعالى (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقال ﷺ (إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه .

ولذلك بقول : الرحمن من أسماء الله ، ولا تقول الله من أسماء الرحمن .

- ومعنى (الله) أي : المألوه المعبود الذي تعبده الخلائق ، وتتأله له محبة وتعظيماً وخضوعاً له ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب ، لما له من صفات الألوهية ، وهي صفات الكمال .
- (الله) لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو مختص بالله لفظاً ومعنى .

لفظاً : أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد .

ومعنى : أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق .

- **قال بعض العلماء** : إنه الاسم الأعظم .

لأنه يوصف بجميع الصفات ، هذا دليل نظري على أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم ، أي أن هذه الأسماء جميعاً ترجع إليه لفظاً ومعنى .

– معنى ترجع إليه لفظاً : أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها كما سبق في الآيات الحديث .

– ومعنى ترجع إليه معنى: أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات.

وقد اختلف العلماء ما هو الاسم الأعظم الذي ورد فيه الحديث (لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى .

القول الأول : هو الله .

للعلة التي سبقت وهي أن جميع الأسماء ترجع إليه .

ولأنه الاسم الذي تكرر في الأحاديث الواردة ومنها: أن رجلاً قال (اللهم إني أسألك أني اشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال ﷺ: لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى). رواه أبو داود وكحديث أنس قال (كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات ... فقال رسول الله ﷺ : دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب) رواه أبو داود .

ولأن هذا الاسم ما أطلق على غير الله .

القول الثاني : إن اسم الله الأعظم : الحي القيوم .

واستدل لهذا القول ببعض الأحاديث التي فيها مقال مثل حديث (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وهما عند أبي داود .

وهذان القولان أقوى الأقوال ، والأول أقوى من الثاني .

- العزيز : اسم من أسماء الله وهو : العزيز ، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله ، وهي ثلاثة أنواع :

عزة القدْر : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي ﷺ (السيد الله) .

وعزة القهر : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

وعزة الامتناع : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

- **قال السعدي** : (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته .
- **الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم** :

أولاً : أن اسمه سبحانه (العزيز) يستلزم توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، إذ الشركة تنافي كمال العزة .

ثانياً : ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص ، قال ابن القيم : ومن تمام عزته : براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

ثالثاً : من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه ، لائذاً بجنابه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه .

رابعاً : أن الإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر العزة في قلب المؤمن ، ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان كما قال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) . والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد .

خامساً : أن الإيمان بهذا الاسم يثمر عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة ، فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله وشقائه .

سادساً : من أسباب العزة : العفو والتواضع والذلة للمؤمنين ، قال تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال ﷺ (... وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) رواه مسلم .

(**الْحَكِيمُ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

- **قال ابن جرير** : هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل .
- **وقال ابن كثير** : الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله .

- **قال ابن القيم** : وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة : أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة ، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل .
- **وقال السعدي** : فالا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يشرع سدى ، الذي له الحكم في الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك ، فيحكم بين عباده في شرعه ، وفي قدره ، وجزائه .

فهو سبحانه حكيم في صنعه ، وحكيم في شرعه ، فجميع مصنوعاته كلها محكمة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

قال بعض العلماء : الحكمة تكون في صورة الشيء : أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة .

وتكون في غايته : أي : أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : أن الله خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وغاية جليلة وهي عبادته سبحانه حيث قال (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . ولم يخلقهم عبثاً وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) . وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) .

ثانياً : أن خلق اله محكم لا خلل فيه ولا قصور ، قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) .

- ونستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله : اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه ، لأن ما يجريه الله – عز وجل من الأحكام مقرون بالحكمة ، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية ، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة .

(**وَأَلْقِ عَصَاكَ**) أمره أن يلقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده، انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى :

(**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**) والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطراباً.

(**وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**) أي: لم يلتفت من شدة فرقه .

– وفي سورة طه (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) .

- **قال السعدي** : وفي وصفها بأنها تسعى ، إزالة لوهم يمكن وجوده ، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة ، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم .

– وفي سورة طه (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) .

– جاء في آية أخرى (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) الآية ، هذه الآية تدل على شبه العصا بالثعبان وهو لا يطلق إلا على

الكبير من الحيات وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) الآية ، لأن الجان هو الحية الصغيرة، والجواب عن هذا أنه شبهها بالثعبان في عظم خلقتها وبالجان في اهتزازها وخفتها وسرعة حركتها فهي جامعة بين العظم وخفة الحركة على خلاف العادة.

- **قال الشنقيطي** : وَقَوْلُه (فَاخْلَعْ نَعْلَيْك) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لِأَنَّهُمَا كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذَكِيٍّ ، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ كَعْبٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ ، نَقَلَهُ عَنْهُمُ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ كَمَا رَوَاهُ عَنْهُمْ صَاحِبُ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَنَقَلَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ عَلِيٍّ وَأَبِي أَيُّوبَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَيُرْوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ غَيْرِ مَنْ ذُكِرَ ، وَجَاءَ فِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَلَا يَصِحُّ ، وَفِيهِ أَقْوَالٌ أُخَرُ لِلْعُلَمَاءِ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَأَظْهَرُهَا عِنْدِي وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ : أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ – أَيْ نَزْعِهِمَا مِنْ قَدَمَيْهِ – لِيُعَلِّمَهُ التَّوَاضُعَ لِرَبِّهِ حِينَ نَادَاهُ ، فَإِنَّ نِدَاءَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ التَّوَاضُعِ وَالْخُضُوعِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ " طُوًى " : أَنَّهُ اسْمٌ لِلْوَادِي .

(**يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**) أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً، وأجعلك نبياً وجيهاً.

- ناداه باسمه ليطمئنه .
- وفي هذا بشارة لموسى لقوله (لا يخاف لدي ...) .

(**إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) استثناء منقطع مما قبله.

أي : إني يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلا سيئا من عبادي ، ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير. والمعصية إلى الطاعة ، فإني أغفر له ما فرط منه ، لأني أنا وحدي الواسع المغفرة والرحمة.

- **قال ابن كثير** : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شيء ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال – تعالى – وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى

وقال – تعالى – وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً .

وقيل : إن الاستثناء متصل ، فيكون المعنى : لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم منهم بأن وقع في الصغائر التي لا يسلم منها أحد ، ثم تاب منها وأقلع عنها ، فإني غفور رحيم.

- **قال الآلوسي** : والظاهر – هنا – انقطاع الاستثناء ، والأوفق بشأن المرسلين ، أن يراد بمن ظلم : من ارتكب ذنبا كبيرا أو صغيرا من غيرهم. وثُمَّ يحتمل أن تكون للتراخي الزماني فتفيد الآية المغفرة لمن بدل على الفور من باب أولى. ويحتمل أن تكون للتراخي الرتبي ، وهو ظاهر بين الظلم والتبديل .

(**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف .

– المعنى : وأدخل يا موسى يدك اليمنى في فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء. أي : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يكون بها أي سوء من مرض أو برص أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا مصحوبا بالسلامة بقدرة الله – تعالى – وإرادته.

قال الحسن البصري : أخرجها – والله – كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقي ربه.

- **قال ابن عطية** : و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) أي : جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن .
- من غير سوء : لأنه قد تكون اليد بيضاء لمرض أو نحو ذلك .
- **قال ابن عطية** (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي : من غير برص ولا علة وإنما هي آية تجيء وتذهب .
- **قال ابن عاشور** : والمقصود من ذلك أن يعجل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله تعالى إياه عند لقاء فرعون .
- قال بعض العلماء : وَأَرَاهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُعْجِزَةَ الْعَصَا وَالْيَدِ لِيَسْتَأْنِسَ بِذَلِكَ قَبْلَ حُضُورِهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْعَصَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى صَارَتْ ثُعْبَانًا وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، فَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَمَا انْقَلَبَتْ ثُعْبَانًا لَمَّا طَالَبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ بِآيَةٍ ، لَكَانَ ذَلِكَ غَيْرَ لَائِقٍ ، وَلِأَجْلِ هَذَا مُرِّنَ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ لِيَكُونَ مُسْتَأْنِسًا غَيْرَ خَائِفٍ مِنْهَا حِينَ تَصِيرُ ثُعْبَانًا مُبِينًا .
- قال تعالى الْقَصَصِ (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) وَالْبُرْهَانَانِ الْمُشَارُ إِلَيْهِمَا بِقَوْلِهِ : فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ ، هُمَا الْيَدُ وَالْعَصَا ، فَلَمَّا تَمَرَّنَ مُوسَى عَلَى الْبُرْهَانَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ هُوَ وَأَخُوهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ طَالَبُوهُ بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فَجَاءَهُمْ بِالْبُرْهَانَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ .

(**فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ**) أي: هاتان ثنتان من تسع آيات ، أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه .

- **قال النحاس** : أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة في تسع آيات.

كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ).

الطوفان : الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم وأضرهم ضرراً كبيراً .

والجراد : فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم .

والقمل : قيل : هو القمل المعروف ، وقيل : الدودة التي تكون في الحبوب .

والضفادع : فملأت أوعيتهم وأقلقتهم ، وآذتهم أذية شديدة .

والدم : إما أن يكون الرعاف ، أو كما قال كثير من المفسرين : أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً .

بالسنين : القحط والجدب .

ونقص من الثمرات : نقس من ثمارهم وغلاتهم .

- وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله – تعالى – لموسى – عليه السلام – إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه.
- **قال ابن كثير** : ولقد أوتى موسى -عليه السلام- آيات أخرى كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه .. وغير ذلك. مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر. ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحوداً .
- فرعون اسم جنس لكل من ملك مصر .

(**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**) هذا تعليل للرسالة إليه ، أي إنما أرسلناك إليهم لأنهم فاسقين خارجين عن الطاعة .

- والفسق ينقسم إلى قسمين : فسق أكبر وهو المراد هنا وكقوله تعالى (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ) ، وفسق

أصغر كقوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

(**فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً**) أي: بينة واضحة ظاهرة .

- الضمير في قوله (جاءتهم) لفرعون وقومه ، و (مبصرة) معناه الإبصار والوضـوح ، وهذا على نحو قولهم : نهار صائم وليل قائم ونائم .
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (إلى فرعون وقومه) أي : مُرْسَلاً إلى فرعون وقَومِه ، فحذف ذلك لأنه معروف (فلما جاءتهم آياتُنا مُبْصِرَةً) أي : بيّنة واضحة ، وهو كقوله (وآتَينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً) .

(**قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**) ، وأرادوا معارضته بسحرهم، فغلبوا وانقلبوا صاغرين أي في ظاهر أمرهم .

- السحر لغة : كل شيء خفي سببه ولطف

(**وَجَحَدُوا بِهَا**) أي في ظاهر أمرهم .

(**وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**) أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها .

قوله (وَجَحَدُوا بِها) من الجحود. وهو إنكار الحق مع العلم بأنه حق ، يقال : جحد فلان حق غيره ، إذا أنكره مع علمه به.

وقوله (وَاسْتَيْقَنَتْها) من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يطرأ عليه شك .

(**ظُلْماً وَعُلُوّاً**) أي: ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة، وعلواً، أي: استكباراً عن اتباع الحق،

- **قال الرازي** : أما قوله (ظُلْماً وَعُلُوّاً) فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى ، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً.

وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله (فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً عالين) وقرئ (علياً) و (علياً) بالضم والكسر ، كما قرئ (عتياً) و (عِتِيّاً) .

(**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**) أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى؛ بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

الفوائد :

١- حسن خلق موسى مع أهله .

٢- أن الزوجة من الأهل ، وعلى هذا فآل النبي ﷺ يدخل فيهم أزواجه .

٣- أن الأحوال البشرية تقع حتى على الأنبياء ، فإن موسى في تلك الليلة قد ضل الطريق .

٤- أن الإنسان لا يلام على أخذه وقاية تدفع عنه البرد .

٥- إثبات الكلام لله لقوله (نودي ...) ، وأنه بصوت لقوله (نودي ..) والنداء لا يكون إلا بصوت .

٦- ينبغي في الإنسان المستوحش أن تفعل معه ما يطمئنه .

٧- وجوب تنزيه الله عما لا يليق به .

٨- عموم ربوبية الله تعالى .

٩- أن جميع الخلق مربوبون لله تعالى ، يتصرف فيهم بمقتضى ربوبيته .

١٠- إثبات العزة والحكمة لله تعالى .

١١- إثبات اسمين من أسماء الله : العزيز – الحكيم .

١٢- تنزيه الله عن العبث .

١٣- هذه الآية العظيمة وهي : العصا صارت حية تسعى .

١٤- دليل على كمال قدرة الله ، وأنه إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون .

١٥- حكمة الله في آيات الرسل ، وأنها تناسب العصر .

١٦- جواز أن يصاب الأنبياء بالخوف لأنه من مقتضى الطبيعية البشرية .

١٧- رحمة الله بنبيه موسى ، لقوله (يا موسى لا تخف) .

١٨- من كان مع الله ، فإنه لا ينبغي أن يخاف ، ولذلك كلما ذكر الإنسان ربه زال عنه الخوف .

١٩- أن الحسنات تمحو السيئات .

٢٠- إثبات المغفرة والرحمة لله .

٢١- أن موسى أعطاه الله تسع آيات ، آيتان سابقتان ، والبقية تبع .

٢٢- أن الله لم يرسل نبياً إلا بآية .

٢٣- طغيان فرعون وقومه .

٢٤- قرن الحكم بعلته .

٢٥- شدة عناد قوم فرعون .

٢٦- أن كفر فرعون وقومه عن عناد .

٢٧- ذم الترفع عن الحق .

٢٨- وجوب النظر في عواقب المفسدين والظالمين .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥))

[النمل : ١٥]

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً**) أي : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا.

أما داود فقد أعطاه – سبحانه – علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع .. قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا ، يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ « ٢ ».

وأما سليمان فقد آتاه – سبحانه – ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، ورزق الحكم السديد بين الناس. قال تعالى : فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً .

- **قال ابن عاشور** : وتنكير (علماً) للتعظيم لأنه علم بنبوءة وحكمة كقوله في صاحب موسى (وعلّمناه من لدُنَّا عِلْماً) .

(**وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**) بيان لموقفهما من نعم الله – تعالى – عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما.

- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه: داود وابنه سليمان عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في

الدين .

- **قال عمر بن عبد العزيز:** إن الله لم ينعم على عبده نعمة، فيحمد الله عليها، إلا كان حمده أفضل من نعمه، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً وَقَالاَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان .
- **قال صاحب الكشاف** : وفي الآية دليل على شرف العلم ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله .

قال تعالى (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

فيه فضل العلم ، ووجه ذلك : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم

- وفي التعبير بقوله تعالى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ ... دلالة على حسن أدبهما، وتواضعهما، حيث لم يقولا فضلنا على جميع عباده .
- **قال السعدي** : وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرا لله على نعمه الدينية والدنيوية وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا، فلما مدحهما مشتركين خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكا عظيماً وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم فقال: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ).
- قال بعض العلماء إن هذه الكلمة (الحمد لله) كلمة كل شاكر ويدل لذلك :

قول أهل الجنة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) .

وبقول نوح عليه السلام (الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) .

وبقول أهل الجنة أيضاً (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

وبقول إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) .

وبقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) .

الفوائد :

١- فضيلة داود وسليمان وأنهما أهل لهذه النعمة .

٢- فضل العلم الشرعي .

٣- فضل الاعتراف بنعمة الله .

٤- مشروعية حمد الله على النعمة .

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

[النمل : ١٦]

(**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**) أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداوُد مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم؛ كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة .

- **قال ابن العربي** : أَرَادَ بِالْإِرْثِ هَاهُنَا نُزُولَهُ مَنْزِلَتَهُ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ، وَكَانَ لِدَاوُدَ تِسْعَةَ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا وَأُنْثَى ، فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالذِّكْرِ ، وَلَوْ كَانَتْ وِرَاثَةَ مَالٍ لَانْقَسَمَتْ عَلَى الْعَدَدِ ، فَخَصَّهُ بِمَا كَانَ لِدَاوُدَ ، وَزَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ.

كما في قوله تعالى (... ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) المراد إرث النبوة والعلم .

وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولداً ، يكون نبيًّا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلي ما هذا حده أن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: (لا نُورَث، تركنا فهو صدقة) وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: "نحن معشر الأنبياء لا نورث .

وعلى هذا فتعين حمل قوله: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي) على ميراث النبوة؛ ولهذا قال (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ، كما قال تعالى (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة".

(**وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) أي : قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله .

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (يا أيها الناس)تشهير لنعمة الله ، وتنويه بها واعتراف بمكانها ، ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور.

(**عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**) أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله .

قال ابن كثير : ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما قد يتفوه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك، لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها.

(**وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**) أي مما يحتاج إليه الملك .

- **قال الزجاج** : أي : من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس.
- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) ظاهره العموم ، والمراد الخصوص ، أي من كل شيء يصلح لنا ونتمناه ، وأريد به كثرة ما أوتي ، فكأنه مستغرق لجميع الأشياء.

كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، يريد كثرة قصاده ، وهذا كقوله تعالى في قصة بلقيس : (وأوتيت من كل شيء) وبنى

علمنا وأوتينا للمفعول ، وحذف الفاعل للعلم به ، وهو الله تعالى.

- **قال ابن عاشور** : ثم إن كان قولهما هذا جهراً وهو الظاهر كان حجة عَلى أنه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعية ترجع إلى أن يَحْذر الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية من أهل الدعوى الكاذبة والجعجعة الجالبة ، وهذا حكم يستنبط من الآية لأن شرع من قبلنا شرع لنا ، وإن قالاه في سرهما لم يكن فيه هذه الحجة.

(**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**) أي: الظاهر البين لله علينا .

قيل : قدم نعمة تعليمه منطق الطير ، لأنها نعمة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته – عليه السلام – .

وقيل : إنه علم منطق جميع الحيوانات. وإنما ذكر الطير لأنه أظهر في النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس.

- **قال الآلوسي** : والجملتان – علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء – كالشرح للميراث.

الفوائد :

١– بيان ما منّ الله به على داود وسليمان من العلم .

٢– مشروعية التحدث بنعمة الله لكن ليس على سبيل الافتخار .

٣– أن الطير تنطق لقوله (منطق الطير) .

٤– أن الله أعطى سليمان من كل شيء يقوم به الملك .

٥– أن كل شيء يعطاه العبد من النعم فهو فضل من الله .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)).

[النمل : ١٧ – ١٩] .

(**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ**) أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير، ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر، أظلته منه بأجنحتها .

- **قال ابن عطية** : قوله (وحشر لسليمان) أيْ : جمع واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أر ذكره لعدم صحة التحديد ، غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملأ الأرض وانقادت له المعمورة وكان كرسيه يحمل أجناده من الإنس والجن ، وكانت الطير تظله من الشمس ويبعثها في الأمور ، وكان له في الكرسي الأعظم موضع يخصه .

- **قال ابن عاشور** : واقتُصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود فلذلك لم يُذكر الخيل وهي من الجيش.

وفي الآية إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم ليشعروا بما ينقصهم ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفي

(**فَهُمْ يُوزَعُونَ**) أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له .

والمعنى : وجمع لسليمان عليه السلام عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي: فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها.

فالتعبير بقوله يُوزَعُونَ يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع في الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفراده إلى جادة الصواب.

(**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ**) أي: حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل .

- قوله : وادي النمل : ظاهره أن هذا الوادي معروف بهذا الاسم [وادي النمل] ويحتمل أنه يكون واد فيه نمل ، والأول هو الظاهر ، وسمى بهذا الاسم لكثرة نمله .

(**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها .

- وكلام هذه النملة أنواعاً من الكلام .

نداء : يا أيها النمل .

وأمراً : ادخلوا ، والمراد به الإرشاد .

تحذير : لا يحطمنكم (وهذا تعليل للأمر : ادخلوا مساكنكم) .

سليمان وجنوده : هذا يدل على أن عظمة سليمان متقررة عندهم .

وهم لا يشعرون : هذا اعتذار .

(**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا**) تبسم من قولها : من كلامها وتحذيرها ونداءها ، وأيضاً تبسم من مغزى هذا القول ، حتى الحشرات تعترف بعظمته وعظم جنوده .

- **قال ابن عطية** : واختلف بما كان ، فقالت فرقة بنعمة الله في إسماعه وإفهامه ونحو ذلك ، وقالت فرقة بثناء النملة عليه وعلى جنوده في أن نفت عنهم تعمد القبيح من الفعل .
- **وقال ابن عاشور** : وإنما تعجب من أنها عرفت اسمه وأنها قالت (وهم لا يشعرون) فوسمته وجندَه بالصلاح والرأفة وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة ، وهذا تنويه برأفتِه وعدله الشامل لكل مخلوق لا فساد منه أجراه الله على نملة ليعلَم شرفَ العدل ولا يحتقِرَ مواضعه ، وأن وليّ الأمر إذا عدل سرى عدله في سائر الأشياء وظهرت آثاره فيها حتى كأنه معلوم عند ما لا إدراك له ، فتسير جميع أمور الأمة على عدل.

ويضرب الله الأمثال للناس ، فضرب هذا المثل لنبيه سليمان بالوحي من دلالة نملة ، وذلك سر بينه وبين ربّه جعله تنبيهاً له وداعية لشكر ربّه فقال : (رب أوزعني أن أشكر نعمتك).

- **قال ابن الجوزي** : قال المفسرون : تبسم تعجُّباً ممَّا قالت : وقيل : من ثنائها عليه.

وقال بعض العلماء : هذه الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظة (يا) نادت (أيها) نبهت (النمل) عيَّنت (ادخلوا) أمرت (مساكنَكم) نصَّت (لا يحطمنَّكم) حذَّرت (سليمانُ) خصَّت (وجنوده) عمَّت (وهم لا يشعُرون) عذرت.

قال السعدي : قوله تعالى (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا) إعجابا منه بفصاحتها ونصحها وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل، والتعجب في موضعه وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

(**وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**) أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان. وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك .

- قال ذلك : اعترافا بنعمة الله عليه ، وخوف العجب والغرور ، كما قال قارون (إنما أوتيته ...) ، والنبي ﷺ كان يقول : اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك .
- النعمة : إما حصول مطلوبه ، أو ينجو من مرهوبه .

(**وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ**) أي : وألهمني أن أعمل عملاً صالحاً تحبه وترضاه .

- العمل الصالح لابد فيه من شرطين : الإخلاص لله ، والمتابعة .

(**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**) أي: إذا توفيتني، فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك .

- **قال ابن كثير** : ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

الفوائد :

١- أن جيش سليمان ثلاثة أقسام : إنس وجن وطير .

٢- كمال التنظيم في جيش سليمان .

٣- ذكاء هذه النملة وفطنتها وحرصها على إنقاذ البقية .

٤- أن للحشرات قولاً مسموعاً يسمعه بني جنسها .

٥- كمال عدلها لقوله (وهم لا يشعرون) .

٦- الاعتذار عن الغير .

٧- جواز التبسم والضحك عند وجوب السبب .

٨- دعاء العبد ربه : أن يوفقه لشكر النعمة .

٩- مشروعية التحدث بنعمة الله .

١٠- أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد .

١١- أن الأنبياء كغيرهم محتاجون إلى توفيق الله وإعانته سبحانه .

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)) .

[النمل : ٢٠- ٢٦] .

(**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**) أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر؟

- **قال القرطبي** : والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء.
- **قال ابن عاشور** : وتفقد الجند من شعار الملك والأمراء وهو من مقاصد حشر الجنود وتسييرها.

ومن واجبات ولاة الأمور تفقد أحوال الرعية وتفقد العمال ونحوهم بنفسه كما فعل عمر في خروجه إلى الشام سنة سبع عشرة هجرية ، أو بمن يكل إليه ذلك ، فقد جعل عمر محمد بن مسلمة الأنصاري يتفقد العمال.

- تفقده الطير لأنه عليه الصلاة والسلام كان جيشه منظماً .
- فِي سَبَبِ تَفَقُّدِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الطَّيْرَ كَانَتْ تُظِلُّ سُلَيْمَانُ مِنْ الشَّمْسِ حَتَّى تَصِيرَ عَلَيْهِ صَافَّاتٍ ، كَالْغَمَامَةِ ، فَطَارَ الْهُدْهُدُ عَنْ مَوْضِعِهِ ، فَأَصَابَتْ الشَّمْسُ سُلَيْمَانَ ، فَتَفَقَّدَهُ حِينَئِذٍ.

الثَّانِي : أَنَّ الْهُدْهُدَ كَانَ يَرَى تَحْتَ الْأَرْضِ الْمَاءَ ، فَكَانَ يَنْزِلُ بِجَيْشِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْهُدْهُدِ : انْظُرْ بُعْدَ الْمَاءِ مِنْ قُرْبِهِ ، فَيُشِيرُ لَهُ إلَى بِقْعَةٍ ، فَيَأْمُرُ الْجِنَّ فَتَسْلُخُ الْأَرْضَ سَلْخَ الْأَدِيمِ ، حَتَّى تَبْلُغَ الْمَاءَ ، فَيَسْتَقِي وَيَسْقِي .

- **قال ابن عطية** : اختلف الناس في معنى " تفقده الطير " ، فقالت فرقة ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والتهمم بكل جزء منها.

وقالت فرقة : بل " تفقد الطير " لأن الشمس دخلت من موضع (الهدهد) حين غاب ، فكان ذلك سبب تفقد الطير ليبين من أين دخلت الشمس .

وقال عبد الله بن سلام إنما طلب (الهدهد) لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كَم هو من وجه الأرض ، لأنه كان نزل في مفازة عدم فيها الماء ، وأن (الهدهد) كان يرى باطن الأرض وظاهرها .

- **قال ابن الجوزي** : قال المفسرون : لما فَصَل سليمان عن وادي النمل، وقع في قفر من الأرض، فعطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدلُّه على الماء، فإذا قال له : هاهنا الماء، شقَّقت الشياطين الصَّخر وفجَّرت العيون قبل أن يضربوا أبنيتهم، وكان الهدهد يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاجة ، فطلبه يومئذ فلم يجده.

وقال بعضهم : إنما طلبه لأن الطَّير كانت تُظِلُّهم من الشمس ، فأخلَّ الهدهد بمكانه ، فطلعت الشمس عليهم من الخلل.

تنبيه : وروي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يقول هذا فقال له : قف يا وقاف كيف يرى (الهدهد) باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه. فقال له ابن عباس رضي الله عنه : إذا جاء القدر عمي البصر.

(**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً**) **قيل** : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل .

ونسبه ابن الجوزي للجمهور .

(**أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ**) يعني: قتله .

(**أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**) بعذر بيّن واضح .

(**فَمَكَثَ**) الهدهد .

(**غَيْرَ بَعِيدٍ**) أي : غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان :

(**فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**) أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك .

- **قال الرازي** : تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به ، فيكون ذلك لطفاً في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته .
- **قال أبو حيان** : ووصف مكثه بقصر المدة ، للدلالة على إسراعه ، خوفاً من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله.

(**وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**) أي : بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حِمْيَر، وهم ملوك اليمن، ثم قال :

(**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**) أي : من عجائب ما رأيت ، أن امرأة هي ملكة لهم ، وهم يدينون بالطاعة لها .

- وجه العجب : أن الملوك عادة من الرجال ، وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك .

(**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**) أي: من متاع الدنيا؛ مما يحتاج إليه الملك المتمكن ، **من الأموال ، والجنود ، والسلاح ، والحصون ،**

والقلاع .

(**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**) يعني : سرير تجلس عليه، عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) أي سرير ؛ ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان.

قيل : كان من ذهب تجلس عليه.

وقيل : العرش هنا الملك ؛ والأوّل أصح ؛ لقوله تعالى : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا) .

- **قال علماء التاريخ** : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه، ومثلها من مغربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساء، ولهذا قال :

(**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي: وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد.

- **قال أبو حيان** : وهذه الإخبارات من الهدهد كانت على سبيل الاعتذار عن غيبته عن سليمان ، وعرف أن مقصد سليمان الدعاء إلى توحيد الله والإيمان به ، فكان ذلك عذراً واضحاً أزال عنه العقوبة التي كان سليمان قد توعده بها.

(**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**) أي : وحسّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله .

(**فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**) أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب .

(**فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ**) أي : فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده .

(**أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي ثم قال الهدهد متعجباً (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي ، قال ابن عباس : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (الذي يُخْرِجُ الخبء) .قال بعض أهل العلم : الخبأ في السموات : المطر ، والخبأ في الأرض : النبات ، والمعادن ، والكنوز ، وهذا المعنى ملائم لقوله (يُخْرِجُ الخبء) وقال بعض أهل العلم : الخبأ : السر والغيب أي يعلم ما غاب في السموات ، والأرض ، كما يدل عليه قوله بعده (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) وكقوله في هذه السورة الكريمة (وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) وقوله (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) .

(**وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**) أي: يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ)

(**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) . أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه .

- العرش : هو أعظم المخلوقات .
- **قال القرطبي** : وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته.
- **قال ابن كثير** : ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهي عن قتله؛ كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد، وإسناده صحيح .
- **قال ابن جرير** : وإنما صار هذا الخبر عُذْراً للهدهد ، لأن سليمان كان لا يرى لأحد في الأرض مملكة سواه ، وكان مع

ذلك يحبُّ الجهاد ، فلمَّا دلَّه الهدهد على مملكةٍ لغيره ، وعلى قومٍ كَفَرة يجاهدهم ، صار ذلك عُذراً له.

الفوائد :

١- أن سليمان – وان أعطي ملكاً عظيما – لا يحيط بكل شيء .

٢- أن سليمان لا يعلم الغيب مهما أعطي من الملك ، وهذا يدل على ضعف الإنسان مهما أعطي من الدنيا .

٣- سعة ملك هذه المرأة .

٤- أن هؤلاء القوم مشركون بالله .

٥- أن الشمس معبودة من قديم الزمان .

٦- أن تزيين الأعمال السيئة من الشيطان .

(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)) .

[النمل : ٢٧ – ٣٣] .

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد، حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم :

(**قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ**) أي: صدقت في إخبارك هذا .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (سَنَنظُرُ) من النظر الذي هو التأمل والتصفح.
- **قال ابن الجوزي** : وإنما شك في خبره ، لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان .

(**أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**) في مقالتك؛ لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ؟

(**اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**) وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد، فحمله، قيل: في جناحه؛ كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وجاء إلى بلادهم، فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب، فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبراء دولتها ومملكتها .

- **قال أبو حيان** : وفي قوله (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام ، يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام.

وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما ملوك العرب.

- **قال السعدي** : فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ، ورجال مملكتها وقالت :

(**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ**) تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره؛ كون طائر جاء به، فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم :

- **قال ابن عاشور** : وظاهر قولها (ألقي إليّ) أن الكتاب سُلّم إليها دون حُضور أهل مجلسها.
- **قال ابن جرير** : اختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتاب بالكريم ، فقال بعضهم : وصفته بذلك لأنه كان مختوماً ،

وقال آخرون : وصفته بذلك لأنه كان من ملك فوصفته بالكرم لكرم صاحبه .

- **قال الرازي** : أما قوله (كِتَابٌ كَرِيمٌ) ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : حسن مضمونه وما فيه .

وثانيها : وصفته بالكريم لأنه من عند ملك كريم .

وثالثها : أن الكتاب كان مختوماً وقال عليه السلام : " كرم الكتاب ختمه " وكان عليه السلام " يكتب إلى العجم ، فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتماً "

- **قال ابن العربي** : الوصف بالكرم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى (إنه لقرآن كريم) .

(**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ**) . فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. قال العلماء: لم يكتب أحد: بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام .

(**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ**) قال قتادة: يقول: لا تجبروا علي ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي ، قال ابن جرير : أن لا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه .

(**وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**) قال ابن عباس: موحدين، وقال غيره: مخلصين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت :

(**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي**) أي أشيروا عليّ في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إليّ ، فجعلتْ المشورة فتيا .

(**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**) أي : حتى تحضرون وتشيرون .

- هذه الآية دليل على صحة المشاورة.

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء.

وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله (وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ) .

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس (قَالَتْ يا أيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ) لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم

(**قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ**) أي : منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر، فقالوا :

(**وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**) أي : نحن ليس لنا عاقة، ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا، فالأمر إليك، مري فينا رأيك، نمتثله ونطيعه .

فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. ولهذا قالت :

الفوائد :

١- أن الكاتب يبدأ الرسالة باسمه .

٢- مشروعية البداءة بـ : بسم الله الرحمن الرحيم في بداية الرسائل .

٣- استعمال الإيجار في الرسائل إذا لم يكن هناك تقصير .

٤- وجوب الدعوة إلى الله

٥- استحباب المشاورة في الأمور العامة .

٦- حزم هذه المرأة ، حيث نظرت في العواقب .

٧- يجوز للمستشير أن يخالف المستشار إذا رأى أنه لم يصب في مشورته .

٨- مكانة هذه المرأة عند قومها .

٩- ذكاء هذه المرأة وحنكتها .

١٠- جواز التحدث بنعمة الله .

(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)) .

(**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا**) قال ابن عباس: أي: إذا دخلوا بلداً عنوة، أفسدوه، أي: خربوه

(**وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**) أي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر

(**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**) أي هذه عادتهم وطريقتهم في كل بلد يدخلونها قهراً .

قوله تعالى (وكذلك يَفْعَلُونَ) اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والأقرب أنه من كلامها ، وأنها ذكرته تأكيداً لما وصفته من حال الملوك.

- **قال ابن الجوزي** : ومعنى الكلام : أنها حذَّرتْهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادها.
- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (وكذلك يفعلون) هو من قولها ، أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتذليل ، وكانت ناشئة في بيت الملك ، فرأت ذلك وسمعت.

ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك.

وقيل : هو من كلام الله إعلاماً لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمته ، وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا.

- ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت :

(**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**) أي : سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا، ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك، ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية، فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها، فهو نبي فاتبعوه .

- **قال السعدي** : قوله تعالى (فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) هل يستمر على رأيه وقوله ؟ أم تخدعه الهدية ، وتتبدل فكرته .
- **قال الرازي** : فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول وجوزت الرد ، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان .
- **قال ابن العربي** : وَإِنَّمَا جَعَلَتْ بِلْقِيسُ قَبُولَ الْهَدِيَّةِ أَوْ رَدَّهَا عَلَامَةً عَلَى مَا فِي نَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهَا فِي كِتَابِهِ (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) وَهَذَا لَا تُقْبَلُ فِيهِ فِدْيَةٌ ، وَلَا تُؤْخَذُ عَنْهُ هَدِيَّةٌ.

وَلَيْسَ هَذَا مِنْ الْبَابِ الَّذِي تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ بِسَبِيلٍ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ رِشْوَةٌ ، وَبَيْعُ الْحَقِّ بِالْمَالِ هُوَ الرِّشْوَةُ الَّتِي لَا تَحِلُّ.

وَأَمَّا الْهَدِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ لِلتَّحَبُّبِ وَالتَّوَاصُلِ فَإِنَّهَا جَائِزَةٌ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ) هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أي إني أجرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفائس من الأموال ، وأغرب عليه بأمور المملكة : فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازَمَنا في أمر الدِّين ، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها .
- **قال أبو حيان** : ولما كانت عادة الملوك قبول الهدايا ، وأن قبولها يدل على الرضا والإلفة ، قالت (وإني مرسلة إليهم) ، أي إلى سليمان ومن معه ، رسلاً (بهدية) ، وجاء لفظ الهدية مبهماً.

وقد ذكروا في تعيينها أقوالاً مضطربة متعارضة ، وذكروا من حيلها ومن حال سليمان حين وصلت إليه الهدية ، وكلامه مع رسلها ما الله أعلم به.

- **قال ابن عاشور** : أبدت لهم رأيها مفضّلةً جانب السلم على جانب الحرب ، وحاذرة من الدخول تحت سلطة سليمان اختياراً لأن نهاية الحرب فيها احتمال أن ينتصر سليمان فتصير مملكة سبأ إليه ، وفي الدخول تحت سلطة سليمان إلقاء للمملكة في تصرفه ، وفي كلا الحالين يحصل تصرف مَلك جديد في مدينتها فعلمت بقياس شواهد التاريخ وبخبرة طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم أن يقلبوا نظامها إلى ما يساير مصالحهم واطمئنان نفوسهم من انقلاب الأمة المغلوبة عليهم في فُرص الضعف أو لوائح الاشتغال بحوادث مهمة ، فأول ما يفعلونه إقصاء الذين كانوا في الحكم لأن الخطر يتوقع من جانبهم حيث زال سلطانهم بالسلطان الجديد ، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة ، فأما إذا أخذوها عنوة فلا يخلو الأخذ من تخريب وسبي ومغانم ، وذلك أشد فساداً.

(**فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ**) أي جاء الرسول سليمان بالهدية .

- **قال ابن كثير** : قال غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب .

(**قال**) أي سليمان ، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه. وقال منكراً عليهم :

(**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ**) أي: أتصانعونني بمال؛ لأتركم على شرككم وملككم ؟

- **قال العلماء** : فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال.

(**فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم**) أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه .

(**بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**) أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا، فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال ابن جرير : ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليّ ، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهْدَى إليكم ، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ، ومكاثرة بها ، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي ، لأن الله تعالى قد مكَّنني منها وملّكني فيها ما لم يُمَلِّك أحد .

- **قال القرطبي** : لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا .

قال أبو حيان : قوله تعالى (أتمدونني بمال) استفهام إنكار واستقلال ، وفي ذلك دلالة على عزوفه عن الدنيا ، وعدم تعلق قلبه عليه الصلاة والسلام بها.

ثم ذكر نعمة الله عليه ، وإن ما آتاه الله من النبوة وسعة الملك خير مما آتاكم ، بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون بحبكم الدنيا .

(**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ**) أي قال سليمان ارجع إليهم بهديتهم .

- قيل ارجع خطاب للرسول ، وقيل للهدهد محملاً كتاباً آخر.
- **قال ابن جرير** : هذا قول سليمان لرسول المرأة .
- **قال الشيخ الشنقيطي** :قوله تعالى إخباراً عن بلقيس (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) ، يدل على تعدد رسلها إلى سليمان وقوله (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَان) بإفراد فاعل جاء ، وقوله تعالى إخباراً عن سليمان أنه قال: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ) الآية يدل على أن الرسول واحد.

والظاهر في الجواب: هو ما ذكره غير واحد من أن الرسل جماعة وعليهم رئيس منهم فالجمع نظراً إلى الكل والإفراد نظراً إلى الرئيس ؛ لأن من معه تبع له والعلم عند الله تعالى.

(**فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا**) أي : لا طاقة لهم بقتالهم .

(**وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً**) أي : ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة .

(**وَهُمْ صَاغِرُونَ**) أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه، ووفودهم إليه، فرح بذلك، وسره .

- **قال أبو حيان** : والذل : ذهاب ما كانوا فيه من العز ، والصغار : وقوعهم في أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

الفوائد :

١- ذكاء هذه المرأة .

٢- استحباب المشاورة خاصة في الأمور العامة .

٣- أنه لا بأس للمستشير أن يقول من شاوره : هذا ما أراه والرأي لك .

٤- علم المرأة بما يصنع الملوك إذا دخلوا القرى .

٥- أنه كان معروفاً منذ القدم أن الهدية لها دور في ترقيق القلوب .

٦- أن من يدعو إلى الله مخلصاً لوجه لا تغره الدنيا ويتنازل عن دعوته من أجل غرض دنيوي .

٧- من أسباب نجاح الداعية عزته بالله وغناه بربه .

٨- مشروعية التحدث بنعم الله .

٩- وجوب الغلظة على أهل الكفر وعدم التسامح معهم في أمر التوحيد والعقيدة .

١٠- مشروعية جهاد الكفار .

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)) .

[النمل : ٣٨- ٤٠] .

(**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا**) قال ابن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء

هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين .

- واختلف في الحكمة من استدعاء عرشها : فقيل : أن سمع بعرشها وجماله فأعجبه ، فأراد أخذه قبل أن تسلم فتحرم عليه أموالهم ، وقيل : استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته ، لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ، وهذا ما رجحه ابن جرير وابن كثير .
- **قال الرازي** : واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرض على وجوه :

أحدها : أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام ، حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت .

وثانيها : أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ، ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره ، والمقصود اختبار عقلها ، وقوله تعالى (قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي) كالدلالة على ذلك .

وثالثها : قال قتادة : أراد أن يأخذه قبل إسلامها ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها .

ورابعها : أن العرش سرير المملكة ، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه.

- **قال أبو حيان** : قال قتادة ، وابن جريج : لما وصف له عظم عرشها وجودته ، أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويمنع أخذ أموالهم ، والإسلام على هذا الدين ،وهذا فيه بعد أن يقع ذلك من نبي أوتي ملكاً لم يؤته غيره ، وقال الطبري : أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله (ولها عرش عظيم) ، وهذا فيه بعد ، لأنه قد ظهر صدقة في حمل الكتاب ، وما ترتب على حمله من مشورة بلقيس قومها وبعثها بالهدية.
- **قال الشوكاني** : قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم.
- **قال ابن عطية** : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها وردّه إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأوّلين.

وقيل : استدعاء العرش قبل وصولها ؛ ليريها القدرة التي هي من عند الله ويجعله دليلاً على نبوّته ، وقيل : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قَال (نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا) .. إلخ .

وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم ، والقول الأوّل هو الذي عليه الأكثر.

(**قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**) قيل : قبل أن يأتوني مسلمين الذي هو دين الله ، وقيل : قبل أن يأتوني مسلمين أي طائعين ورجحه ابن جرير وقال : لأن المرأة لم تأت سليمان إذ أتته مسلمة ، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه وبعد محاورة جرت بينهما ومساءلة .

(**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ**) وهو المارد القوي من الجن .

- قال أبو عبيدة : العِفْريت من كل جِنّ أو إنس : الفائق المبالغ الرئيس.
- وقال ابن قتيبة : العِفْريت : الشديد الوثيق.
- وقال الزجاج : العفريت : النافذ في الأمر ، المبالغ فيه مع خُبث ودهاء.

(**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**) أي قبل أن تقوم من مجلسك ، والمراد السرعة .

- وهذان الوصفان وصف لكل عامل كما قال تعالى عن ابنة صاحب مدين (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) لأنه إذا فاتت القوة لم يحسن العمل لعدم العدل ، وإذا فاتت الأمانة لم يحسن العمل سبب الخيانة .

(**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**) أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجواهر .

وهذان الوصفان يحتاج إليهما كل عامل .

كما قال تعالى عن تلك المرأة (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ) .

وهذان الوصفان مطلوبان في كل عمل ، لأنه إذا فاتت القوة لم يحصل الأمر من أجل العجز ، وإذا فاتت الأمانة يتخلف العمل بسبب الخيانة .

- **قال ابن تيمية:** اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، ولهذا كان عمر يقول: اللهم أشكو إليك جلد الكافر وعجز الثقة. (السياسة الشرعية)
- وهذا التنصيص على هذين الوصفين هو من وفور عقل هذه المرأة التي رأت اكتمال هاتين الصفتين في موسى عليه السلام، وهو دليل على أن هذا من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في كل أمة من الأمم، وشريعة من الشرائع.
- وقد أخذ العلماء ـ رحمهم الله ـ هذه الآية مأخذ القاعدة فيمن يلي أمراً من الأمور، وأن الأحق به هو من توفرت فيه هاتان الصفتان، وكلما كانت المهمة والمسؤولية أعظم، كان التشدد في تحقق هاتين الصفتين أكثر وأكبر .
- **قال ابن تيمية** : فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى (إن خير من استأجرت القوي الأمين) ...، والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خَدْعَةٌ، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر...، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً، وتركِ خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل من حَكم على الناس في قوله تعالى: (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة: ٤٤]... إلى أن قال : اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة .

- **قال ابن كثير** : فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك ، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالإغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك :

(**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**) اختلف في المراد به ، فقيل: هو آصف كاتب سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ، وقيل : جبريل وهو قول ضعيف ، وقيل : الخضر ، قال ابن كثير : وهو غريب جداً .

- **قال ابن عطية** : واختلف المفسرون في (الذي عنده علم من الكتاب) من هو، فجمهور الناس على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه "آصف بن برخيا" روي أنه صلى ركعتين ثم قال يا نبي الله أمدد بصرك فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده، وقال قتادة اسمه بليخا، وقال إبراهيم النخعي هو "جبريل عليه السلام"، وقال ابن لهيعة هو الخضر.
- **قال ابن الجوزي** : وفي العِلْم الذي عنده من الكتاب ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور.

- **قال الشوكاني** : قال أكثر المفسرين : اسم هذا الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا ، وهو من بني إسرائيل ، وكان وزيراً لسليمان ، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى.

(**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ**) أي يرجع .

(**طَرْفُكَ**) أي بصرك .

- **قال الشوكاني** : والمراد بالطرف : تحريك الأجفان ، وفتحها للنظر وارتداده انضمامها.

وقيل : هو بمعنى المطروف ، أي الشيء الذي ينظره ، وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك : افعل ذلك في لحظة. قاله مجاهد.

وقال سعيد بن جبير : إنه قال لسليمان : انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به ، فوضعه بين يديه ، والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء ، والأول أولى هذه الأقوال.

(**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ**) أي ثابتاً عنده .

(**قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي**) أي هذا من نِعم الله علي .

- الفضل هو العطاء الزائد .

(**لِيَبْلُوَنِي**) ليختبرني .

(**أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**) أي أأشكر إنعامه ، أم أجحد فضله وإحسانه ؟

- الشكر يكون بالاعتراف بالقلب ، وذكرها باللسان تحدثاً بالنعمة ، وأن يقوم بطاعة الله .

(**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**) أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه ، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ، وهذه الآية كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) .

(**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ**) غني عمن كفر .

- **الغني** : اسم من أسماء الله تعالى .

قال ابن القيم : هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد .

وقال السعدي : هو الغني بذاته ، الذي له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته ، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً ، لأن غناه من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه ، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة ، المغني جميع خلقه غنى عاماً .

قال : ومن كمال غناه : أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل .

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه ، فليست به حاجة إليهم ، وهم إليه فقراء متاجون .

- فالله الغني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه .

فالله ذو الغنى الواسع . كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

وقال تعالى (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

وغنى الله مقرون بحمده كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فهو غني يحمد على غناه ، لأنه يجود به على غيره .

فغني الله يتضمن شيئين :

الأول : الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه .

والثاني : الغني عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه .

- الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى ؟

ثانياً : الافتقار التام إلى اله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين ، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أد ، وكل أحد محتاج إليه .

ثالثاً : أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس ، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس ، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم ، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء وحوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه .

رابعاً : أن الله غني عن عباده ، ومع ذلك فهو مسن إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

- وكثيراً ما يقترن هذا الاسم باسم الله (الحميد) :

لأنه غني يحمد على غناه ، لأنه يجود به على غيره ، لأنه قد يكون الغني غنياً لا يُحمد عليه ، مثل البخيل ، فالبخيل غني لكن لا يحمد على غناه ، لأنه لا يستفاد من ماله .

(**كَرِيمٌ**) كثير الخير ، يعم به الشاكر والكافر ، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها ، وكفرها داع لزوالها .

من أسماء الله ، وهو كثير الخير .

وخيره كثير قال تعالى (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) .

ومن كرمه أنه يستحيي أن يرد عبده إذا سأله .

كما قال ﷺ (إن ربكم حيي كريم) .

ومن كرم الله غفرانه للذنوب والسيئات (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) .

ومن كرمه تعالى ما جاء في حديث ابن عباس .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) جاء معناه موضحاً أيضاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى (وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) وقوله تعالى (فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ) وقوله تعالى (يا أيها الناس أَنتمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد) وقوله تعالى (والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم) إلى غير ذلك من الآيات .

- **والشكر** : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله

- **فضائل الشكر** :

أولاً : الله أمر به .

قال تعالى : (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

ثانياً : التوبيخ على عدم الشكر .

قال تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ) .

ثالثاً : الثناء على الشاكرين وأنه سبل الرسل .

قال تعالى : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

رابعاً : الشكر نفع للشاكر نفسه .

قال تعالى : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) .

خامساً : أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب .

قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) .

سادساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

سابعاً : أن الصفوة من عباد الله يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمته .

قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

ثامناً : أن الشاكرين قليلون .

قال تعالى : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وهذا يدل على أنهم هم خواص الله .

تاسعاً : أن الله خلق الناس ليشكروه .

قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ

- أن الابتلاء بالخير والشر ، قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وفتنة السراء أخطر من فتنة الضراء .

قال عبد الرحمن بن عوف : ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ويدل لذلك ما ورد أن أكثر ما يدخل الجنة المساكين .

ولهذا أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون .

الفوائد :

١- يجوز للإنسان أمام عدوه أن يظهر قوته .

٢- فراسة سليمان حيث توقع مجيئهم مسلمين .

٣- تسخير الجن لسليمان .

٤- قوة الجن وسرعتهم .

٥- يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما اتصف به من صفات الكمال ترغيباً أو ترهيباً .(بشرط أن يكون متصفاً به حقيقة) .

٦- مدار العمل على هذين الوصفين وهما القوة والأمانة ، لأن من ليس بقوي لا يتقن العمل لضعفه ، ومن ليس بأمين لا يتقن العمل لخيانته .

٧- أن جنود الله وهم الملائكة أقوى من الجن .

٨- كمال قدرة الله العظيمة .

٩- فضل الله على سليمان حيث سخر له الجن وأهل العلم .

١٠- التحدث بنعمة الله بإضافة النعمة إليه .

١١- أن النعم اختبار للعباد .

١٢- أن الناس بالنسبة للنعم ينقسمون إلى قسمين شاكر وكافر .

١٣- فضل الشكر لله ، وأنه مستفيد من شكره بالزيادة والدوام .

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)) .

[النمل : ٤١- ٤٤] .

(**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا**) أي غيروه بزيادة ونقص ، ونحن في ذلك :

(**نَنظُرْ**) مختبرين عقلها .

(**أَتَهْتَدِي**) للصواب ، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها .

(**أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ**) لمعرفته .

- فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند مفاجأتها باطلاعها على عرشها الذي خلفته وراءها في بلادها. وإيقافها على مظاهر قدرة الله تعالى وعلى ما وهبه لسليمان عليه السلام من معجزات.

(**فَلَمَّا جَاءتْ**) قادمة على سليمان ، عرض عليها عرشها ، وكان عهدها به ، وقد خلفته في بلدها .

(**قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ**) أي عرض عليها عرشها وقد غُيّر وزيد فيه ونقص منه .

قال الآلوسي : (أَهَكَذَا عَرْشُكِ) أي أمثل هذا العرش الذي ترينه عرشك الذي تركتيه ببلادك ، ولم يقل : أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها وقد ذكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل.

(**قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**) أي يشبهه ويقاربه .

- **قال ابن كثير** : وهذا في غاية الذكاء والحزم ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وان غيّر وبدل ونكر .

(**وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**) هذا من قول سليمان ، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته ، وكنا مسلمين لله من قبلها ، فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه قول سليمان ، قاله مجاهد.

ثم في معناه قولان:

أحدهما : وأُوتينا العِلْم بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة.

والثاني : أُوتينا العِلْم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكُنَّا مُسْلِمِين لله.

والقول الثاني : أنه من قول بلقيس ، فإنها لما رأت عرشها ، قالت : قد عرفتُ هذه الآية ، وأُوتينا العِلْم بصِحَّة نبوَّة سليمان بالآيات المتقدِّمة ، تعني أمر الهدهد والرُّسُلِ التي بُعثت من قَبْل هذه الآية ، وكُنَّا مُسْلِمِين منقادِين لأمركَ قبل أن نجيء.

والثالث : أنه من قول قوم سليمان ، حكاه الماوردي.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) .

قيل : هو من كلام بلقيس ، أي أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش (وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) منقادين لأمره.

وقيل : هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ، ومجيئها طائعة من قبلها أي من قبل مجيئها.

وقيل : هو من كلام قوم سليمان.

والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال.

(**وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر .

(**إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ**) أي بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين .

- **قال الزجاج** : المعنى : صدَّها عن الإيمان العادةُ التي كانت عليها ، لأنها نشأت ولم تعرِف إلا قوماً يعبُدون الشمس ، وبيَّن عبادتها بقوله : (إِنَّها كانت من قوم كافرين).

(**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ**) أي ادخلي القصر العظيم .

- والصرح القصر كقوله (يا هامان ابن لِي صَرْحاً) .
- المقصود من هذا الصرح اختبارها : إن كانت جبانة لا تدخله ، إن كانت مغفلة دخلت وثيابها نازلة ، وإن كانت شجاعة دخلت ورفعت عن ساقيها .

(**فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا**) أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ، ظنته لجة ماء – أي ماء غمراً كثيراً – وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه .

(**قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ**) أي قال سليمان : إنه قصر مملّس من الزجاج الصافي .

فتبين بذلك أمران :

الأمر الأول : عظمة ملك سليمان ، حيث إن الزجاج يصنع له كأنه البحر اللجي .

الأمر الثاني : الإشارة إلى أن هذه المرأة – وإن كانت ذكية – يخفى عليها هذا الأمر ، ففيه نوع من إظهار ضعفها

فلما شاهدت هذه الأمور العظيمة : كإتيان عرشها ، وهذا الصرح العظيم ، حينئذ اعترفت :

(**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**) أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله .

(**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

الفوائد :

١- جواز اختبار الغير لمعرفة ذكائه .

٢- فضل العلم .

٣- أن نشوء الإنسان في بيئة كافرة بسب في كفره .

٤- عظم ملك سليمان .

٥- أن الشرك بالله من أعظم الظلم .

٦- أن هذه المرأة أسلمت لله تعالى .

٧- فضل الدعوة إلى الله .

٨- إظهار القوة أمام الأعداء .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)**) .

[النمل : ٤٥- ٤٧] .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**) يخبر تعالى عن ثمود، وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

(**فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**) قال مجاهد: مؤمن وكافر؛ كقوله تعالى (قَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؟ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيۤ ءَامَنتُمْ بِهِ كَٰفِرُونَ) .

- **قال الشيخ الشنقيطي** :قوله تعالى (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحاً إلى ثمود ، فإذا هم فريقان يختصمون ، ولم يبين هنا خصومة الفريقين ، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى (قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) فهذه خصومتهم ، وأعظم أنواع الخصومة ، الخصومة في الكفر والإيمان .
- وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك :

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) .

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) .

وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) .

بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وأمر الله بها جميع رسله :

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ) ، وكذلك قال هود ، وصالح ، وشعيب ، وغيرهم .

وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وكان كل نبي يقول لقومه : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره كما قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وقال تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

وقال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

وقال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

ووصف ملائكته بذلك :

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ) .

- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** : لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى .

وهي أول أمر بالقرآن (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

(الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أي أوجدكم من العدم ، وأوجد من قبلكم من الأمم الماضية .

- ففيها أن المستحق للعبادة هو من يخلق ، أما من هو عاجز عن الخلق فلا يستحق أن يكون معبوداً ، وقد جرت العادة في القرآن الكريم في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود ، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود ، ويوجدكم بعد أن كنتم عدماً هو هذا ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده ، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (أفمن يخلق

- قال بعض العلماء : إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن

خلقهن العزيز العليم) ، وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

- فيه عظيم منزلة العبودية ، حيث وصف الله تبارك وتعالى نبيه بهذا الوصف في مقام التحدي .

وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات :

في مقام التحدي : كما في هذه الآية .

وفي مقام الإسراء والمعراج : قال تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

وفي مقام الإيحاء : قال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

وفي مقام الدعوة : قال تعالى (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) ، وقال ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه البخاري .

- **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله** : والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله ، وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

- ومعنى الاختصام : أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه ، ويزعم أن الحقّ معه ، وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟ وقيل : أحد الفريقين صالح ، والفريق الآخر جميع قومه ، وهو ضعيف.

(**قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**) أي: لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟

لقولهم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

- ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له .

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ) .

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(**لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم ؟

- فيه أن الاستغفار من أسباب رحمة الله ، ومن أسباب رحمة الله :

أولاً : رحمة الناس .

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض.

قال رسول الله (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك.

قال رسول الله : اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله : لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة .... . رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) . متفق عليه

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع) . رواه ابن حبان

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

رابعاً : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول .

قال تعالى (وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

خامساً : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

(**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ**) أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء، إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون (فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ) .

وقال تعالى(وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ) أي: بقضائه وقدره .

وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

(**قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ**) أي: الله يجازيكم على ذلك .

(**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**) قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله (تُفْتَنُونَ) أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى في هذه الآية الكريمة (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) ، قال بعض العلماء تختبرون وقال بعضهم : تعذبون كقوله (يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ) .

وقد قدمنا إن أصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص؟ وأنها أطلقت في القرآن على أربعة معان :

الأول : إطلاقها على الإحراق بالنار .

كقوله تعالى (يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ) . وقوله تعالى (إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات) أي : حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين. وقد اختاره بعض المحققين.

المعنى الثاني : إطلاق الفتنة على الاختبار ، وهذا هو أكثرها استعمالاً .

كقوله تعالى (وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً) وقوله تعالى (وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) والآيات بمثل ذلك كثيرة.

الثالث : إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة ، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال .

كقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ) أي : حتى لا يبقى شرك ، وهذا التفسير الصحيح ، دل عليه الكتاب والسنة.

الرابع : هو إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) أي : لم تكن حجتهم ، كما قاله غير واحد. والعلم عند الله تعالى.

الفوائد :

١-أن الله يرسل الرسل للناس تبشيراً ونذيراً .

٢- وجوب عبادة الله وحده .

٣- أن أول أمر يجب على الداعية أن يقوم به هو التوحيد وعبادة الله تعالى .

٤-أن دعوة جميع الرسل كانت إلى توحيد الله تبارك وتعالى كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

٥-أن الكفار – لطغيانهم – دائماً يستعجلون العذاب .

٦- أن الاستغفار والتوبة سبب لرحمة الله .

٧-بيان مسلك المكذبين للرسل وهو مسلك التشكيك بهم .

٨-أن المصائب من الله ولا ينافي هذا (وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) فإن نسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد ونسبتها إلى المخلوق نسبة سبب .

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)) .

[النمل : ٤٨- ٥٣] .

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً، فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربته: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به؛ من أنهم لم يشاهدوا

ذلك، فقال تعالى :

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ) أي : مدينة ثمود .

(تِسْعَةُ رَهْطٍ) أي : تسعة نفر .

(يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) أي من صفات هؤلاء الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدرون عليه من الإفساد .

- **قال القرطبي:** قوله تعالى (وَكَانَ فِي المدينة) أي في مدينة صالح وهي الحِجر (تِسْعَةُ رَهْطٍ) أي تسعة رجال من أبناء أشرافهم. وكانت آية صالح الناقة .

قال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..... فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) .

وقال تعالى (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ) .

وقال تعالى (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا) .

- **قال ابن كثير** : وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة هناك – ناقة، من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً يسموها ونعتوها وتعنتوا فيها.

وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا: نعم.

فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم.

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب.

وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش سالف، وهو ابن رجل يقال له صيبان.

وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم .

قال تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) .

- فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهى الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: "ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب" وفى آية" عظيم"وفى الأخرى" أليم" والكل حق.

والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: " فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ".

(**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ**) أي: تحالفوا، وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) أي لنقتلنه وأهله ليلاً ، والبيات قتل الليل .
- **قال القرطبي** : والبيات مباغتة العدو ليلاً.

(**ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**) ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به من علم ، فدمرهم الله أجمعين.

(**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**) أي ونحلف لهم إنا لصادقون .

(**وَمَكَرُوا مَكْراً**) أي دبّروا مكيدة لقتل صالح .

(**وَمَكَرْنَا مَكْراً**) أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم .

(**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون .

(**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**) أي فتأمل وتفكر في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم ، كيف أهلكناهم أجمعين ، وكانت مآلهم الخراب والدمار .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) أي بالصيحة التي أهلكتهم.

وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل.

والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة.

- **قال الشوكاني** : المعنى في الآية : أن الله دمّر التسعة الرهط المذكورين ، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك ، ومعنى التأكيد بأجمعين : أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم.

(**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً**) خاوية خالية ، وقيل متهدمة .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (خاوية) " إخواء البيوت " وخرابها مما أخبر الله تعالى به في كل الشرائع أنه مما يعاقب به الظلمة وفي التوراة. ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك .
- **قال الآلوسي** : وفي هذه الآية على ما قيل دلالة على الظلم يكون سبباً لخراب الدور.

(**بِمَا ظَلَمُوا**) أي بسبب ظلمهم وهو كفرهم .

فالمعاصي سبب للهلاك والدمار .

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

وفي الحديث (أنهلك وفينا الصالحون...) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النَّبِيّ ﷺ قَالَ «مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعاً» . رواه البخاري

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) أي في قصة قوم ثمود وهلاكهم .

(**لَآيَةً**) لعبرة وعظة .

(**لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) يعلمون قدرة الله وحكمته فيما حدث للأمم الكافرة .

(**وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا**) من الهلاك والتدمير ، والمراد بهم صالح ومن معه .

(**وَكَانُوا يَتَّقُونَ**) الله ، بترك المعاصي والكفر وفعل الطاعات .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ ، ثَلَاثَةَ أُمُورٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ دَمَّرَ جَمِيعَ قَوْمِ صَالِحٍ ، وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ تِسْعَةُ رَهْطٍ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) أَيْ : وَهُمْ قَوْمُ صَالِحٍ ثَمُودَ ، (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً) أَيْ : خَالِيَةً مِنَ السُّكَّانِ لِهَلَاكِ جَمِيعِ أَهْلِهَا ، (بِمَا ظَلَمُوا) أَيْ : بِسَبَبِ ظُلْمِهِمُ الَّذِي هُوَ كُفْرُهُمْ وَتَمَرُّدُهُمْ وَقَتْلُهُمْ نَاقَةَ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً لَهُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : (خَاوِيَةً) أَيْ : سَاقِطًا أَعْلَاهَا عَلَى أَسْفَلِهَا .

الثَّانِي : أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ إِهْلَاكَهُ قَوْمَ صَالِحٍ آيَةً ، أَيْ : عِبْرَةً يَتَّعِظُ بِهَا مَنْ بَعْدَهُمْ ، فَيَحْذَرُ مِنَ الْكُفْرِ ، وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ، لِئَلَّا يَنْزِلَ بِهِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ التَّدْمِيرِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ تَعَالَى أَنْجَى الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ ، وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا جَلَّ وَعَلَا هُنَا، جَاءَتْ مُوَضَّحَةً فِي آيَاتٍ أُخَرَ .

أَمَّا إِنْجَاؤُهُ نَبِيَّهُ صَالِحًا ، وَمَنْ آمَنَ بِهِ وَإِهْلَاكَهُ ثَمُودَ ، فَقَدْ أَوْضَحَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ؛ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ «هُودٍ» (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) . وَآيَةُ «هُودٍ» هَذِهِ ، قَدْ بَيَّنَتْ أَيْضًا التَّدْمِيرَ الْمُجْمَلَ فِي آيَةِ «النَّمْلِ» هَذِهِ ، فَالتَّدْمِيرُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) ، بَيَّنَتْ آيَةُ «هُودٍ» أَنَّهُ الْإِهْلَاكُ بِالصَّيْحَةِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) أَيْ : وَهُمْ مَوْتَى .

وَأَمَّا كَوْنُهُ جَعَلَ إِهْلَاكَهُ إِيَّاهُمْ آيَةً :

فَقَدْ أَوْضَحَهُ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِمْ (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

الفوائد :

١- أن المعاصي من أسباب الفساد في الأرض .

٢- دليل على عظمة الله وأنه أعظم مكراً مما يمكرون برسوله .

٣- أن العقوبات والهلاك بسبب فساد وكفر الإنسان .

٤- أن العقوبة تعم ثم يبعث الناس على أعمالهم .

٥- أن الإيمان والتقوى سبب للنجاة .

٦- الحث على الإيمان والتقوى .

٧- بيان عدل الله حيث أهلك من يستحق الإهلاك وأنجى من يستحق الإنجاء .

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨)) .

[النمل : ٥٤- ٥٨] .

(**وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ**) أي واذكر رسولنا (لوطاً) حين قال لقومه أهل سدوم .

ولوطٌ: هو لوطُ بنُ هارانَ ابنُ أَخِي إبراهيمَ.

أي: وَأَرْسَلْنَا لوطًا، أي: وَاذْكُرْ نَبِيَّ اللهِ لوطَ بنَ هارانَ إِذْ قال لقومِه الذين أُرْسِلَ إليهم وهم بلدُ سدوم والقرى التي حَوْلَهَا، وهي المعروفةُ بالمؤتفكاتِ؛ لأن المؤتفكاتِ قُرَى قومِ لوطٍ، والمؤتفكةُ بالإفرادِ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بها جميعُ القُرَى؛ لأن مثلَ ذلك يُطْلَقُ عليه ما يُطْلَقُ على المؤنثةِ المفردةِ المجازيةِ التأنيثِ.

وقيل لقرى قومِه: (المؤتفكات) لأن جبريلَ عليه السلام أَفَكَهَا أي: قَلَبَهَا بهم فَاقْتَلَعَهَا من الأرضِ وَرَفَعَهَا إلى السماءِ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، كما قال تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وجَعْلُ العالِي هو السافلَ هو معنَى القلبِ والأَفْكِ؛ لأن العربَ تقولُ: أَفَكَ الشيءَ يأفكه إذا قَلَبَهُ، ومنه سُمِّيَ أسوأُ الكذبِ (إِفْكًا) لأنه قلبٌ للحقيقةِ عن ظاهرِها الصحيحِ إلى شيءٍ آخَرَ بَاطِلٍ.

(**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ**) وهي اللواط .

والفاحشةَ في لغةِ العربِ أنها كُلُّ خصلةٍ متناهيةٍ في القبحِ تُسَمِّيهَا العربُ فاحشة، وكلُّ شيءٍ بالغٍ نهايتَه تُسَمِّيهِ العربُ فاحشاً .

وهذه الخصلةُ الخسيسةُ القبيحةُ هي فاحشةُ اللواطِ – قَبَّحَهَا اللهُ وقبحَ مرتكبَها .

ولذا أَنْكَرَهَا نبيُّ اللهِ لوطٌ عليهم، وَبَيَّنَ أنه مُبْغِضٌ لها غايةَ البغضِ في قولِه (إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) أَيْ: من الْمُبْغِضِينَ الكارهين أَشَدَّ البغضِ والكراهيةِ.

– فهي فاحشةٌ خسيسةٌ قبيحةٌ لم يَسْبِقْ إليها أحدٌ قَوْمَ لُوطٍ، كما قال هنا: (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) .

– وفاحشةُ اللواطِ –قَبَّحَهَا اللَّهُ وَقَبَّحَ مُرْتَكِبَهَا– أولُ مَنْ فَعَلَهَا من أهلِ الدنيا قومُ لوطٍ، وهي من خسائسِ الذنوبِ الجامعةِ بينَ الخسةِ ودناءةِ صاحبِها ورداءتِه، وشناعتِها وكثرةِ مفاسدِها، فإن لها مفاسدَ عظيمةً، مع أنها لاَ يرتكبُها إلا أخسُّ الناسِ، وأرذلُ

الناسِ، وأقبحُ الناسِ دِينًا، ومروءةً وإنسانيةً، الذين يَرْتَكِبُونَهَا أشبهُ شيءٍ بالبهائمِ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ، وَقَبَّحَ فِعْلَهُمْ القبيحَ.

ومن خسائسِ هذه الفاحشةِ: أنها إن انْتَشَرَتْ في الناسِ واستغنى الرجالُ بالرجالِ صار ذلك سببًا لانقطاعِ الجنسِ الإنسانيّ ودمارِ الدنيا، وخصلةٌ إذا تَمَادَى الناسُ فيها كانت خَرَابًا لجميعِ الدنيا، هي من أَخَسِّ الخصالِ. ويزعمُ الناسُ الذين مَارَسُوا أضرارَ هذه الخسيسةِ أن الإنسانَ المفعولَ به إذا نَزَلَ مَنِيُّ اللائطِ فيه أن ذلك الْمَنِيَّ – والعياذُ بالله – يُورِثُهُ أضرارًا قبيحةً: يجعلُه دَيُّوثًا، وَيُضَيِّعُ هِمَّتَهُ، ويخربُ إنسانيتَه وكيانَه، فيبقى القبيحُ الخسيسُ الخنزيرُ كَلاَ .

- **قال ابن عطية** : و{ الفاحشة } إتيان الرجال في الأدبار .

(**وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**) أي وأنتم تعلمون أنها فاحشة وأنها عمل قبيح ، وقيل : وأنتم تبصرون أي تشاهدون بعضكم بعضاً كما قال تعالى (إنكم تأتون في ناديكم المنكر) .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (**وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**) ففيه وجوه :

أحدها : أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل .

وثانيها : أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته .

وثالثها : تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم .

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم.

وقيل : يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه.

وكانوا لا يسترون عتوّاً منهم وتمرّداً.

- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) .

قيل : معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية وقيل : تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض ، وقيل : تبصرون آثار الكافر قبلكم وما نزل بهم من العذاب

- **قال ابن عاشور** : وجملة (وأنتم تبصرون) حالٌ زيادة في التشنيع ، أي تفعلون ذلك علَناً يبصر بعضكم بعضاً ، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.
- اللواط أعظم من الزنا .

(**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء**) تكرير التوبيخ ، أي أئنكم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء ؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً) تثنية للإنكار وبيان لما أتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام .
- والشهوةُ: هي مَيْلُ النفسِ إلى الشيءِ ورغبتُها فيه.
- و(شَهْوَةً) شهوةً هنا في إعرابِه أَوْجُهٌ متقاربةٌ ، بعضُهم يقولُ: مفعولٌ لأَجْلِهِ، أي: تأتونَ الرجالَ لأجلِ شهوتِكم لهم دونَ النساءِ. وبعضُهم يقول: هو مصدرٌ مُنَكَّرٌ حالاً، أي: في حالِ كونِكم مُشْتَهِينَ الرجالَ دونَ النساءِ. وبعضُهم يقولُ: هو ما نَابَ عن المطلقِ من قوله: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ) فإنه مُضَمَّنٌ معنَى: تشتهونَ الرجالَ شهوةً.

قوله تعالى (مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ) لأَنَّ النساءَ هُنَّ أزواجُكم اللاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ لكم، لِتَتَمَتَّعُوا بهن تَمَتُّعًا نزيهًا طاهرًا يكونُ عنه النسلُ

وبقاءُ الجنسِ الآدميّ، فَتَرَكْتُمْ هذا الأمرَ الطيبَ الكريمَ وهو إتيانُ النساءِ، وهي الأزواجُ التي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، كما قال تعالى عنهم: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) .

(**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**) أي أنتم قوم سفهاء ماجنون ، ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء .

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

وقال تعالى (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) .

وقال تعالى (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) .

- قوله تعالى (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها .
- وفي سورة الأعراف (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) هذا النوعُ من الإضرابِ يُسَمَّى (إضرابًا انْتِقَالِيًّا).
- **قال الشنقيطي** : والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ؛ لأن اللَّهَ خَلَقَ لهم النساءَ وجعلَ فيهن الجمالَ، وركبَ فيهن الشهوةَ؛ لأن اللَّهَ إنما رَكَّبَ الشهوةَ في الرجالِ والنساءِ، الحكمةُ الكبرى في ذلك أن يقعَ التناسلُ ويبقى نوعُ الإنسانِ؛ لأن المرأةَ إذا كانت لا تَشْتَهِي الجماعَ لا يمكنُ أن تَقْبَلَهُ بحالٍ أبدًا، فلا يمكنُ أن يُرْغِمَهَا على قبولِ جماعِ الرجلِ لها إلا شهوتُها في ذلك الفعلِ، فلو كانت لا تشتهيه ألبتةَ لَمَا قَبِلَتْهُ أبدًا وَلَتَمَنَّعَتِ النساءُ عن ذلك الفعلِ فَانْقَطَعَ نسلُ بَنِي آدمَ، وكذلك الرجلُ إن كان لم يُرَكَّبْ فيه شهوةُ هذا الفعلِ لاَ يقبلُ ذلك الفعلَ أبدًا. فجعلَ اللَّهُ الشهوةَ في الرجالِ إلى النساءِ، وفي النساءِ إلى الرجالِ؛ لتجتمعَ الشهوةُ والشهوةُ فيقعُ بذلك التناسلُ، ويبقَى نوعُ الإنسانِ. فَمَنْ صَرَفَ الشهوةَ إلى غيرِ محلِّها وجعلَها في الذَّكَرِ أَسْرَفَ؛ لأنه جَاوَزَ الحدَّ وَوَضَعَ الأمرَ في غيرِ مَوْضِعِهِ؛ لأنه لو اقْتَصَرَ الرجالُ على الرجالِ وتركوا النساءَ لاَنْقَطَعَ النسلُ وانقطعَ بَنُو آدمَ وخرب الْعَالَمُ كُلُّهُ؛ ولذا قال: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

(**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**) أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

- **قال قتادة** : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء.
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) تعليل للأمر على وجه يتضمن الاستهزاء أي إنهم أناس يزعمون التطهر والتنزه عن أفعالنا أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذراً وهم متكلفون بإظهار ما ليس فيهم ، والظاهر أن هذا الجواب صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالأمر والنهي لا أنه لم يصدر عنه كلام آخر غيره.
- قريتكم : إغراء لإخراجه ، لأن لوط جاءكم وليس من قريتكم .

(**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ**) أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم ، في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله عليه الصلاة والسلام لا كرامة لها .

(**الغابرين**) أي: من الباقين في الهلاكِ

- قوله تعالى (إلا امرأته ...) كانت امرأتُه قبيحةً خبيثةً مع الكفارِ كافرةً، وَضَرَبَ اللَّهُ لها مَثَلاً هي وامرأة نوحٍ في قولِه (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) قَبَّحَهَا اللَّهُ .

(**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً**) أي حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد .

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) .

وقوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللهَ قال: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

قال تعالى في سورة الأعراف (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) .

- **قال الشنقيطي** : العاقبةُ: هي ما يَؤُولُ إليه الأمرُ عقبَ الأمرِ الأولِ، وتؤولُ إليه الحقيقةُ في ثاني حَالٍ.

والمجرمونَ جمعُ المجرمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ، (فَانْظُرْ كَيْفَ) الحالُ التي يَؤُولُ إليها أمرُ المجرمينَ وعاقبتُهم، وهو الدمارُ والنكالُ، والعذابُ المستأصلُ المتصلُ بعذابِ الآخرةِ. وهذا معنَى قولِه: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) يُخَوِّفُ اللهُ خلقَه أن يقعَ بهم مثلُ ما وقعَ بهؤلاءِ، ومن أعظمِ ما يخوفُ الطغاةَ الفجرةَ من فاحشةِ اللواطِ – قَبَّحَهَا اللهُ وقبَّح مرتكبَها – أن الله بَيَّنَ في كتابِه أن مرتكبيَها أُرْسِلَ عليهم حجارةُ السجيلِ، ثم بَيَّنَ أن تلك الحجارةَ موجودةٌ، وأنها لم تُعْدَمْ، وأنها ليست ببعيدٍ من الظالمينَ الذين يفعلونَ مثلَ فِعْلِهِمْ حيث قال: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

لأن في قوله تعالى (مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) قولان :

الأول : أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش) ، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون .

والثاني : الضمير يعود على الحجارة ، أي : وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم .

وقد اختصرت القصة هاهنا وبسطت في مواضع :

كما قال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)) .

ولهذا قال :

(**فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**) الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم .

الفوائد :

١- بيان عظم هذه الفاحشة العظيمة وهي اللواط .

٢- أن كل رسول يرسل إلى قومه ، ولم يرسل أحد لعموم الناس إلا نبينا ﷺ .

٣- بيان وجوب الإنكار على من أتى هذه الفاحشة .

٤- أن الفاحشة تعظم بما يقرن بها لقوله (وأنتم تبصرون) .

٥- بيان ما عليه هؤلاء القوم من المظهر الاجتماعي المنحط .

٦- أن هذه الفعلة من السفه العظيم .

٧- بيان عتو هؤلاء المكذبين للوط ، وأنهم لم يقتصروا على رد دعوته بل اتفقوا على طردهم من البلد .

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) .

[النمل : ٥٩- ٦١] .

(**قُلِ**) يا محمد ، وكل من يصح خطابه .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى) .
- **قال الفرّاء** : قال أهل المعاني : قيل للوط (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) على هلاكهم.

وخالف جماعة من العلماء الفرّاء في هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية.

- **قال النحاس** : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره.
- **قال الرازي** : القول في خطاب الله عز وجل مع محمد ﷺ .

في هذه الآية قولان : الأول : أنه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على إهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم .

الثاني : أنه مبتدأ فإنه تعالى لما ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه ، أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم ، وبأن يسلم على الأنبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (قُلِ الحمدُ لله) هذا خطاب لرسول الله ﷺ ، أُمِرَ أن يَحْمَد اللهَ على هلاك الأمم الكافرة ، وقيل : على جميع نِعَمه .

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) أي على نعمه على عباده التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى .

- فالله سبحانه محمود بكل حال .
- الحمد هو وصف المحمود مع المحبة والتعظيم .
- **قال ابن عاشور** : أمر الرسول بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم من النصر ورفعة الدرجات.

وعلى أن أهلك الأعداء الظالمين كقوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ونظيره قوله في سورة العنكبوت (قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) وقوله في آخر هذه السورة (وقل الحمد لله سيريكم) الآية.

فأمر الرسول بحمد الله على ذلك باعتبار ما أفاده سوق تلك القصص من الإيماء إلى وعد الرسول بالنصر على أعدائه ، فقوله

(قل الحمد لله) أمر للرسول ﷺ بإنشاء حمد الله.

(**وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**) أي وسلّم أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين ، من الأنبياء والمرسلين ، وصفوة الله رب العالمين ، وذلك لرفع ذكرهم وتنويهاً بقدرهم ، وسلامتهم من الشر والأدناس ، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب .

- **قال ابن الجوزي** : فيهم أربعة أقوال :

أحدها : الرسل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

وروى عنه عكرمة ، قال : اصطفى إبراهيم بالخُلَّة ، وموسى بالكلام ، ومحمداً بالرؤية.

والثاني : أنهم أصحاب محمد ﷺ ، رواه أبو مالك عن ابن عباس ، وبه قال السدي.

والثالث : أنهم الذين وحَّدوه وآمنوا به ، رواه عطاء عن ابن عباس.

والرابع : أنه أمة محمد ﷺ ، قاله ابن السائب .

(**آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**) استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

- الله خير في كل شيء ، في صفاته وفي ثوابه وجزائه لمن يعبده .

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى :

(**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**) أي: خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها. وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة .

(**وَالْأَرْضَ**) وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

(**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء**) أي : جعله رزقاً للعباد .

- السماء : المراد به العلو .

(**فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ**) أي : بساتين .

(**ذَاتَ بَهْجَةٍ**) أي: منظر حسن، وشكل بهي .

(**مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا**) أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك، المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد؛ كما يعترف به هؤلاء المشركون .

كما قال تعالى في الآية الأخرى (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) .

وقال تعالى (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال :

(**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**) أي : أإله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق .

- ومن المفسرين من يقول: معنى قوله (أَإِلَهٌ مَّعَ الله) فعل هذا؟ وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب: أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: فكيف تعبدون معه غيره، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ) .
- **قال ابن كثير** : وقوله تعالى ههنا: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ)؟ (أَمَّنْ) في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه

الأشياء، كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق، وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك. وقد قال الله تعالى: (ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) . وهكذا قال تعالى:(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَٰجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ) أي: أمن هو هكذا، كمن ليس كذلك ، ولهذا قال تعالى (رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَٰبِ) .

- والله تعالى يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

- **قال السعدي** : وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك. (تفسير السعدي) .

(**بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**) أي : يجعلون لله عدلاً ونظيراً .

قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) .

وقد اختلف العلماء في معنى قوله تعالى (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) :

فقيل : أنه من العدل عن الشيء ، بمعنى الانحراف والميل عنه ، والمعنى : إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال .

وقيل : معنى (يعدلون) يجعلون له نظيراً في العبادة ، وهذا القول هو الصحيح ، ومنه قول العرب : عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً ، ويدل لهذا القول قوله تعالى (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) .

- **قال ابن القيم** : (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

♦ وفي هذه الآية تحريم الشرك في المحبة وأن يُجعل مع الله ند يحب كما يحب الله، قال ابن القيم في قوله تعال (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

(**أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً**) أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم؛ فإنها لو كانت كذلك، لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة، لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى (ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ قَرَاراً وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً) .

(**وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً**) أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها، وصرفها فيها؛ ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه .

(**وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ**) أي : جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بهم .

كما قال تعالى (والجبال أرساها) .

(**وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً**) أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا،

وهذا بهذا؛ فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء بريحها؛ كما قال تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً) ولهذا قال :

(**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**) أي: فعل هذا؟ أو يعبد، على القول الأول والآخر؟. وكلاهما متلازم صحيح .

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) أي: في عبادتهم غيره .

الفوائد :

١- وجوب حمد الله .

٢- الله يحمد على كل شيء في الكون .

٣- من نعم الله إهلاك المكذبين الظالمين .

٤- جواز المقارنة بين شيئين لا يتفقان بالمعنى لكن لإقامة الحجة .

٥- بيان مراد الله من خلق السموات والأرض .

٦- بيان حكمة الله في إنزال المطر من العلو .

٧- بيان رحمة الله في عباده .

٨- أن الأشياء ينبغي أن تضاف إلى المسبب لا إلى السبب لقوله (فأنبتنا به) .

٩- إثبات الأسباب لقوله (فأنبتنا به) .

١٠- أن الخلق لا يمكن أن ينبتوا شجرة واحدة .

١١- تحدي هؤلاء المتخذين آلهة مع الله أن يكون لآلهتم أن تفعل شيئاً .

١٢- إقامة الحجة على سفه هؤلاء المشركين .

١٣- قدرة الله العظيمة .

١٤- بيان أن رحمة الله سبقت غضبه .

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)) .

[النمل : ٦٢ –٦٤] .

(**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**) ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل .

كما قال تعالى (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلْضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَ إِيَّاه) .

وقال تعالى (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ) وهكذا قال ههنا (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوۤءَ) أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟

- **قال الآلوسى** : المضطر هو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجاء والضراعة إلى الله عز وجل .
- **قال الماوردي** : قوله تعالى (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) .

وإنما خص إجابة المضطر لأمرين

أحدهما : لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع.

الثاني : لأن إجابته أعم وأعظم لأنها تتضمن كشف بلوى وإسداء نعمى.

- **قال القرطبي** : ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ؛ كما قال تعالى : (حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين) وقوله (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم.

وقال تعالى (فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين) فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه.

قال ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

- **قال ابن رجب رحمه الله** : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهى ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .
- **قال الفضيل** : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد . (جامع العلوم والحكم)

(**وَيَكْشِفُ السُّوءَ**) أي البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده .

(**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ**) أي: يخلف قرناً لقرن قبلهم، وخلفاً لسلف .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى(وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض) أي يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم، والمعنى: يهلك قرناً وينشئ آخرين ، وقيل : يجعل أولادكم خلفاً منكم ، وقيل : يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وديارهم .
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (أَمَّنْ يجيب المضْطَرَّ) وهو : المكروب المجهود (ويَكْشِفُ السُّوء) يعني الضُّرَّ (ويجعلُكم خُلَفَاءَ الأرض) أي : يُهلك قرناً وينشئ آخرين . (زاد المسير) .

كما قال تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ) .

وقال تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، وهكذا هذه الآية: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ) أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين؛ كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم، حتى ينقضي الأجل، وتفرغ البرية؛ كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال :

(**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**) أي: يقدر على ذلك، أو أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟

(**قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**) أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

(**أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية .

والمعنى : من الذي يرشدكم في أسفاركم إلى المكان الذي تريدون الذهاب إليه ، عند ما تلتبس عليكم الطرق ، وأنتم بين ظلمات البحر وأمواجه ، أو وأنتم في متاهات الأرض وفجاجها.

كما قال تعالى (وَعَلامَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) .

(**وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**) أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأزلين القنطين.

- **قال الشوكاني** : والمراد بالرحمة هنا المطر أي : يرسل الرياح بين يدي المطر ، وقبل نزوله .
- **قال الماوردي** : قوله تعالى (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وهو المطر في قول الجميع

(**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**) أي: فعل هذا؟ أو يعبد، على القول الأول والآخر؟. وكلاهما متلازم صحيح .

(**تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**) تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم ، وتسويتهم به غيره .

(**أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**) أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده .

المعنى : قولوا لنا – أيها المشركون – من الذي في قدرته أن يوجد الخلق في الأرحام من نطفة ، ثم يحولها إلى علقة ، ثم إلى مضغة .. ثم يعيد هذه المخلوقات جميعها بعد موتها ، إلى الحياة مرة أخرى؟ لا شك أنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله تعالى .

كما قال تعالى في الآية الأخرى (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) .

وقال تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (أَم مَّنْ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ) كانوا يقرّون بأن لله سبحانه هو الخالق ، فألزمهم الإعادة أي إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة .
- **فإن قيل** : كيف قيل لهم : أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم منكرون للإعادة؟.

فالجواب : أنهم كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة ، صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار . (الرازي) .

(**وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**) أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض .

كما قال تعالى (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ) .

وقال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) .

فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً، فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى (كُلُواْ وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لأَيَٰتٍ لأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ) ولهذا قال :

(**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**) أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر: بعد هذا ؟

(**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**) على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى .

(**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى:{ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ) .

الفوائد :

١- أن المضطر مجاب الدعوة مطلقاً .

٢- منّة الله على عباده بكشف السوء وإزالته عن المضطر وعن غيره .

٣- يجب الاعتماد على الله في كشف السوء وهذا لا ينافي فعل الأسباب .

٤- من رحمة الله جعل الناس خلفاء لبعض .

٥- أن قليل من الناس من يتذكر ويعتبر .

٦- أن هداية الناس للطريق من نعمة الله على العباد سواء في البر أو في الحضر .

٧- أن هذه الرياح مسخرة مدبرة .

٨- أن المطر من رحمة الله .

٩- تنزه الله عن كل ما يشرك به .

١٠- بيان قدرة الله في بدء الخلق وإعادته .

١١- أن الرزق من الله .

(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ (٦٦)) .

[النمل : ٦٥- ٦٦] .

(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له .

كما قال تعالى (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ) .

وقال تعالى (بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ) . إلى آخر السورة ، والآيات في هذا كثيرة .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) أي : ولا يدري ولا يعلم الخلائق متى يبعثون بعد موتهم .

- لان علم الساعة إلى الله ، فلا يعلم أحد متى يبعث .

(بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) قيل المعنى : أي تكامل علمهم في الآخرة ، حين عاينوها ، أي يعلمون في الآخرة علماً كاملاً ما كانوا يجهلونه في الدنيا (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ) أي : في دار الدنيا ، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا ، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل ، يعلمونه في الآخرة علماً كاملاً لا يخالجه شك عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث والجزاء .

ويدل لهذا القول قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) .

وقوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ..) .

وقيل : أي: انتهى علمهم، وعجز عن معرفة وقتها ، **وقيل** : أي: تساوى علمهم في ذلك كما في صحيح مسلم (أن رسول الله ﷺ قال لجبريل، وقد سأله عن وقت الساعة : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، أي : تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل .

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا) عائد على الجنس، والمراد الكافرون .

كما قال تعالى (وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا) أي: الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا) أي: شاكون في وجودها ووقوعها

(بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ) أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

الفوائد :

١- أنه لا يعلم الغيب أحد إلا الله .

٢- أن علم الغيب مرجعه إلى الله .

٣- كفر من ادعى علم الغيب .

٤- كفر من ذهب إلى كاهن أو غيره ممن يدعي الغيب فصدقه .

٥- أنه لا أحد يدري متى تقوم الساعة .

٦- أن أي حديث فيه تعيين وقت الساعة فهو حديث مكذوب .

٧- أن الكفار يعلمون الحق يوم القيامة لكن لا ينفعهم ذلك .

٨- أن الكفار يتحسرون أشد الحسرة على تفريطهم في الدنيا .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨))

[النمل : ٦٧- ٦٨] .

(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**) يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال :

(**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ**) أي : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم :

(**إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان (إِلاَّ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ) أي: أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد – وما ذكره تعالى هنا من إنكار الكفار للبعث ذكره في مواضع أخر :

قال تعالى (وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين) .

(**وَقَالُوا**) أي الكفار المنكرين للبعث .(**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**) أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ، أي : ليس هناك حياة إلا هذه ، ثم أكدوا ذلك بقولهم :(**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) أي : وليس هناك بعث ولا نشور .

وقال تعالى عنهم (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) .كما قال تعالى :

(**إِنَّ هَؤُلاءِ**) أي : كفار قريش (**لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى**) أي : ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا ولا حياة ولا بعث (**وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ**) أي : وما نحن بمبعوثين ، ثم احتجوا بحجة باطلة : فقالوا :(**فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) أي : ارجعوا بآبائنا بعد موتهم إلى الدنيا إن كنتم صادقين فيما تقولونه وتخبرونا به من البعث ، وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، ثم قال تعالى متوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد .

قال تعالى (قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) .

وقال تعالى (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) .

وقال تعالى (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) .

وقال تعالى (وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) .

وقال تعالى (ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) .

قال تعالى (وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ) .

- **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله** : البعث إعادة وليس تجديداً ، بل هو إعادة لما زال وتحول ، ومن زعم بأن الأجساد تخلق من جديد ، فإن هذا زعْم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل .

فإن الله يقول (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) أي يعيد ذلك الخلق الذي ابتدأه .

وفي الحديث القدسي : يقول الله تعالى (ليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته) فالكل على الله هيّن .

وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقال ﷺ (يحشر الناس حفاة عراة) فالناس هم الذين يحشرون وليس سواهم .

- وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن ، وجاءت على سبع طرق :

الطريقة الأولى :

آيات صريحة في إثبات ذلك :

قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) .وقال تعالى : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .وقال تعالى : (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد :

فقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ) .

وقال تعالى : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) .

وقال تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وذم الله المكذبين بالمعاد :

فقال تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) .

الطريقة الثانية :

التذكير بنشأة الإنسان الأولى :

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) .

وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

الطريقة الثالثة :

الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات :

قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) .

وقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الرابعة :

الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الخامسة :

تنزيه الله سبحانه عن العبث .

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث ، فما فائدة الأوامر والنواهي .

قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) .

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) . أي : لا يؤمر ولا ينهى ، وقيل لا يبعث .

الطريقة السادسة :

تنزيه الله عن الظلم :

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس ، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه ، والكافر لا يعرف ربه أصلاً .

قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

الطريقة السابعة :

ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

كما في قصة قتيل بني إسرائيل .

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها .

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة .

وقصة أصحاب الكهف ، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، قال تعالى في قصتهم : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...) .

الفوائد :

١-كفر من أنكر البعث ، كما قال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) .

٢-وجوب الإيمان بالبعث .

٣- أن قضية البعث من القضايا الأساسية التي تحدث عنها القرآن ونوّع الاستدلال لها .

(**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)) .**
[النمل : ٦٩-٧٠] .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) أي (قُلْ) لهؤلاءِ الكفار (سِيرُوا) في بلاد الشام والحجاز واليمن.

(فَٱنظُرُواْ) أي بقلوبكم وبصائركم (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين) المكذبين لرسلهم.

كما قال تعالى (قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) .

- فإنَّ في مشاهدةِ عاقبتِهم ما فيهِ كفايةٌ لأُولي الأبصارِ وفي التعبيرِ عن المكذبينَ بالمجرمينَ لُطفٌ بالمؤمنينَ في تَرْكِ الجرائم.

(**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**) أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم، وتذهب نفسك عليهم حسرات .

(**وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**) أي في كيدك، ورد ما جئت به؛ فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) لإصرارهم على الكفر والتكذيب (وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ) أي في حرج صدر (مِّمَّا يَمْكُرُونَ) أي من مكرهم فإن الله تعالى يعصمك من الناس.
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)كانت الرحمة غالبة على النبي ﷺ والشفقة على الأمة من خلاله ، فلما أُنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام فربط الله على قلبه بهذا التشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به.

وكان من رحمته ﷺ حرصه على إقلاعهم عما هم عليه من تكذيبه والمكر به ، فألقى الله في روعه رباطة جاش بقوله (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) .

الفوائد :

١- وجوب الاعتبار بما يحصل للمكذبين من الهلاك والدمار بسبب هلاكهم .

٢- أن من فوائد قصص القرآن الكريم الاعتبار والاتعاظ (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) .

٣- أن عدم الاعتبار بالمكذبين وما جرى عليهم من صفات الكفار القاسية قلوبهم .

٤- عدم الحزن إذا لم يهتد الكفار ، فما على الرسول إلا البلاغ .

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)) .**
[النمل : ٧١- ٧٥] .

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) أي : يقولون استهزاء : متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين .

- **قال الآلوسي** : وكأنهم فهموا وعدهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظر في عاقبة أمثالهم المكذبون .

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالوعد ما أنذروا به من العقاب.

والاستفهام عن زمانه ، وهو استفهام تهكم منهم بقرينة قوله (إن كنتم صادقين) .

(**قُلْ**) يا محمد .

(**عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**) قال ابن عباس: أن يكون قرب، أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون، وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي، وهذا هو المراد بقوله تعالى(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا) .

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ) .

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**) أي : في إسباغه نعمه عليهم، مع ظلمهم لأنفسهم .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**) وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك، إلا القليل منهم .

كما قال تعالى (وقليل من عبادي) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس) في تأخير العقوبة وإدرار الرزق (ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ) فضله ونعمه.
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس) أي : لذو إفضال وإنعام كثير على كافة الناس ، ومن جملة إفضاله عز وجل وإنعامه تعالى تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي .
- **قال ابن عاشور** : وهذا خبر خاص بالنبي ﷺ تنبيهاً على أن تأخير الوعيد أثر من آثار رحمة الله لأن أزمنة التأخير أزمنة إمهال فهم فيها بنعمة ، لأن الله ذو فضل على الناس كلهم.
- قوله تعالى (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**) اعلم أن من أسباب تحقيق الشكر النظر إلى من هو أقل في المال والصحة .

كما قال ﷺ (انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ) .

وقال ﷺ (اللهم ارزقني فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين) .

- **واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة :**

منها : أنها توجب إخلاص العمل لله .

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

ومنها : أنها تزيل الكبْر .

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب .

ومنها : أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه .

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال له : إن أحببتَ أن يلين قلبُك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد .

ومنها : أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه ، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

ومنها : أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين .

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى من دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم) .

وكان عون بن عبد اله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم ، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً ، فتركهم وجالس المساكين فاستراح .

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول : مسكين بين مساكين .

قال ابن رجب: وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه .

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين .

كتب الثوري إلى بعض إخوانه : عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين .

ويروى عن أبي هريرة قال : كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه ، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا المساكين .

وكانت زينب بنت خزيمة تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم ، وتوفيت في حياة النبي ﷺ .

ومر الحسن بن علي على مساكين يأكلون ، فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) .

وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين ، وكان يقول : لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة .

وكان سفيان الثوري يعظم المساكين ، ويجفو أهل الدنيا ، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء .

وقال سليمان التيمي : كنا إذا طلبنا علية أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين .

وقال الفضيل : من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين .

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ**) أي: يعلم الضمائر والسرائر؛ كما يعلم الظواهر .

كما قال تعالى (سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) .

وقال تعالى (يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى) .

قوله تعالى (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) أي تخفي صدورهم (وَمَا يُعْلِنُونَ) يظهرون من الأمور.

(**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ**) أي : وما من شيء .

(**فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**) أي : إلا وقد علمه الله وأحاط به ، واثبته في اللوح المحفوظ عنده .

كما قال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) .

الفوائد :

١- أن الكفار دائماً يستعجلون العذاب .

٢- أن حكمة الله في عدم إهلاك الكفار مباشرة .

٣- فضل الله على الناس ــ مؤمنهم وكافرهم — عظيم .

٤- أن الله يعلم ما في الصدور .

٥- يجب على الإنسان أن ينوي في قلبه النية الصالحة ، لأن الله يعلم ما في القلوب .

٦- عظمة الله ، حيث يعلم كل شيء ، حتى ما تكنه الصدور .

٧- أن كل شيء في السماء والأرض مكتوب في اللوح المحفوظ . [١٦ / رمضان / ١٤٣٦هـ] .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨))

[٧٦-٧٨] .

(**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**) يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان: أنه يقص على بني إسرائيل، وهم حملة التوراة والإنجيل .

(**أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) كاختلافهم في عيسى، وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام؛ كما قال تعالى (ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضاً فنزلت.

والمعنى : إن هذا القرآن يبيّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط من كتبهم من الأحكام.

- **وقال الشنقيطي** : قوله تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) وَمِنْ ذَلِكَ اخْتِلَافُهُمْ فِي عِيسَى ، فَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» ، ادِّعَاءَهُمْ عَلَى أُمِّهِ الْفَاحِشَةَ ، مَعَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ آمَنَتْ بِهِ ؛ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ) وَالطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ قَالَتِ الْحَقَّ فِي عِيسَى ، وَالَّتِي كَفَرَتِ افْتَرَتْ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» .

وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» وَسُورَةِ «النِّسَاءِ» وَغَيْرِهِمَا ، حَقِيقَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَهِيَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَلَمَّا بَيَّنَ لَهُمْ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ مُفَصَّلَةً فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» قَالَ (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) وَذَلِكَ يُبَيِّنُ بَعْضَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

(**وَإِنَّهُ لَهُدًى**) أي : أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة .

كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) .

أي أن هذا القرآن العظيم القدر ، يهدي للتي هي أقوم أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب ، وقال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين) ، وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) ، إن القرآن العظيم كالمصباح لهذه الأمة ، فلا سبيل لهدايتها إلا به ، والقرآن مثبت على الحق ، كما قال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) .

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام ، ويطلق هداه على الهدى الخاص ، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء ، وبيان الحق من الباطل ، والنافع من الضار ، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي : بينا الحق على لسان نبينا صالح ، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) . وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه ، ويكون سبب دخوله الجنة ، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) .

- وخصهم المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بآيات الله ، كما قال تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) فخصهم بالإنذار لأنهم المنتفعون به ، وإلا فالإنذار للجميع .

(**وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**) ورحمة لهم في الدنيا والآخرة .

قال القرطبي : خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به.

- قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) مفهومه أنه ليس هدى لغير المؤمنين .

كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

وقال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا) .

- **قال ابن عاشور** : أما كونه هدى للمؤمنين فظاهر ، وأما كونه رحمة لهم فلأنهم لما اهتدوا به قد نالوا الفوز في الدنيا بصلاح نفوسهم واستقامة أعمالهم واجتماع كلمتهم ، وفي الآخرة بالفوز بالجنة.

والرسالة المحمدية وإن كانت رحمة للعالمين كلهم كما تقدم في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فرحمته للمؤمنين أخص.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم**) أي: يوم القيامة .

(**بِحُكْمِهِ**) العادل ، وقضائه المبرم ، فيجازي المحق والمبطل .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ) أي : يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازي المحقّ والمبطل.

وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه.

وَهُوَ الْعَزِيزُ) تقدم شرحها .

(**الْعَلِيمُ**) بأفعال عباده وأقوالهم – وقد تقدم تعريف العلم بأوسع – وأنه عليم بكل شيء .

الفوائد :

١- ينبغي أن يعتني بما هو مهم ويترك ما لا فائدة منه لقوله (أكثر الذي هم فيه يختلفون) .

٢- أن الذي ليس عنده إقبال على الحق قد يحرم من الحق .

٣- أن المعرض عن الحق بمنزلة الأعمى .

٤- أن الرسول لا يملك هداية الخلق . وأما قوله (وانك لتهدي إلى صراط) المراد بها هداية الدلالة والبيان ، وأما التوفيق لذلك فهذه بيد الله .

٥- كلما قوي إيمان الإنسان بآيات الله قوي الانتفاع بها .

٦- أن القرآن هداية ورحمة للخلق .

٧- إثبات يوم القيامة للبعث والجزاء .

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العزيز ، والعليم .

(**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)**) .

[النمل : ٧٩] .

(**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) أي: في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك .

- التوكل : هو الاعتماد على الله مع الثقة مع فعل الأسباب .

- **مباحث التوكل :**

أولاً : تعريف التوكل :

قال الإمام أحمد : هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق .

قال ابن رجب : التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله : وحقيقة التوكل على الله : أن يعلم أن الأمر كله لله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل . (السعدي) .

ثانياً : أمر الله بالتوكل في آيات كثيرة :

قال تعالى (وعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) . وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) .

ثالثاً : فضائله :

أولاً : أنه سبب لدخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

ولحديث ابن عباس (...هذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ ... فَخَرجَ عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ، فَقَالَ : هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ ، وَلا يَسْتَرْقُونَ ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون) .

ولحديث (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير) .

حكى النووي في هذا الحديث : أن المراد بهؤلاء القوم هم المتوكلون .

ثانياً : أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين) .

ثالثاً : التوكل من شيم أنبياء الله ورسله وأوليائه .

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ).

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون .

قال ابن القيم : فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد .

خامساً : التوكل على الله مجلبة للرزق .

عن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) رواه الترمذي .

سادساً : المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

سابعاً : المتوكلون الله حسبهم وكافيهم .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه ، وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً ، وكفاه ونصره . (بدائع الفوائد) .

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

قال في الإحياء : أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى زمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير أمر من توكل على تدبيره .

تاسعاً : لا توكل بدون إيمان .

قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين) .

وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

رابعاً : من أقوال السالف :

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله .

قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربعة :

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي .

وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به .

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره .

وعلمت أني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحيٍ منه .

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه .

قال منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا .

وقال بعضهم : علامة التوكل انقطاع المطامع : أي في الخلق والأسباب .

وقال آخر : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق .

(**إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**) أي: أنت على الحق المبين، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية .

الفوائد :

١-وجوب التوكل على الله .

٢- أن من توكل على الله كفاه .

٣- أن من كان على الحق فلا ينبغي له أن يخاف ، لأنه متوكل على العظيم القوي .

(إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)) .

[النمل : ٨٠ – ٨١] .

(**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**) أي لا تسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار ، فهم كالموتى لا حس لهم ولا عقل .

- أو المعنى : لا تسمعهم لأنهم موتى القلوب .
- قال ابن جرير : يقول : إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهم الحق من طبع الله على قلبه فأماته ، لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه .
- قوله تعالى (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى) قال المفسرُون : هذا مَثَلٌ ضربه الله للكفار فشبَّههم بالموتى.
- **قال الشنقيطي** : اعلم التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن ، أن معنى قوله هنا : إنك لا تسمع الموتى لا يصح فيه من أقوال العلماء ، إلا تفسيران :

الأول : أن المعنى : إنك لا تسمع الموتى : أي لا تسمع الكفار ، الذين أمات الله قلوبهم ، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع ، لأن الله كتب عليهم الشقاء ، فختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على قلوبهم الأكنة ، وفي آذانهم الوقر ، وعلى أبصارهم الغشاوة ، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع : ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا أنه جل وعلا قال بعده (وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

ولو كان المراد بالموت في قوله : (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى) مفارقة الروح للبدن لما قابل قوله : إنك لا تسمع الموتى بقوله : إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ، بل لقابله بما يناسبه كأن يقال : إن تسمع إلا من لم يمت : أي يفارق روحه بدنه كما هو واضح.

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول ، فاعلم أن

استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) ، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله : والموتى يبعثهم الله : الكفار ، يدل له مقابلة الموتى في قوله : والموتى يبعثهم الله بالذين يسمعون في قوله (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ) .

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قوله تعالى (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى)الآية. وما في معناها من الآيات كلها ، تسلية له ﷺ ، لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى في آيات كقوله تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ) الآية. وقوله تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الآية. وقوله (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) الآية. وقوله تعالى (فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين) ، وكقوله تعالى (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) الآية. قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً) وقوله تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

ولما كان يحزنه كفرهم ، وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له ﷺ بين له فيها : أنه لا قدرة له ﷺ على هدى من أضله الله، فإن الهدى والإضلال بيده جل وعلا وحده وأوضح له أنه نذير ، قد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم.

ولو كان معنى الآية ، وما شابهها : إنك لا تسمع الموتى : أي الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ ، كما ترى .

والثاني : أن المراد بالموتى من مات حقيقة .

- وقد اختلف العلماء ، هل الموتى يسمعون أم لا على قولين :

القول الأول : أن الموتى لا يسمعون .

أ- لقوله تعالى (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) .

ب-قوله تعالى (فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين) .

ج-قوله تعالى (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) .

د-قوله ﷺ (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلّغوني من أمتي السلام) رواه أحمد .

وجه الدلالة من الحديث أن النبي ﷺ لا يسمع سلام المسلّمين عليه، إذ لو كان يسمعه بنفسه، لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه، وإذا الأمر كذلك فبالأولى أنه ﷺ لا يسمع غير السلام من الكلام ، وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيره من الموتى أولى وأحرى .

القول الثاني : أن الموتى يسمعون مطلقاً .

وهذا اختيار جمع من المحققين ،كابن حزم ، والقاضي عياض ، والنووي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير .

أ- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاَثاً ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ « يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » . فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا) . ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ) متفق عليه .

ب- عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ » . قَالَ « يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ .....) متفق عليه .

ج- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ (السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ). رواه مسلم

وجه الدلالة : هذا الحديث فيه مخاطبة النبي ﷺ لأهل القبور بقوله (السلام عليكم) وهذا يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه ، لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم ، ولا شك في أن ذلك ليس من شأن العقلاء .

د–عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (ما من رجل يمر على قبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه ، إلا عرفه ورد عليه السلام) رواه ابن حبان في المجروحين وهو ضعيف .

هـ– عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال (ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام). رواه أبو داود

(**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**) أي لا تُسمعهم دعاءَك ونداءك إذا ذكّرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان ، لأنهم كالصم الذين في قلوبهم وقر ، فلا يستجيبون الدعاء ، لا سيما إذا تولوا عنك معرضين ، فإن الأصم إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع ، حيث انضم إلى صَممه بعدُ المسافة .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء) يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) كما تقدّم

(**وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ**) أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم .

(**إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**) أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضعُ لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام .

الفوائد :

١– استدل بالآية من قال : إن الموتى لا يسمعون .

٢– أن من كتب الله عليه الشقاء فلن تستطيع هدايته .

٣– أن الكفر موت ، وأن الإيمان حياة ، وقد قال ﷺ (مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لاَ يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) .

٤– أن الهداية بيد الله .

٥– أن النبي ﷺ ليس بيده هداية أحد ، وإنما عليه البلاغ . (١٧ / رمضان / ١٤٣٦)

(**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)) .**

[النمل : ٨٢] .

(**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**) هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة ، أي إذا قرُبَ وقت نزول العذاب وقيام الساعة

(**أَخْرَجْنَا لَهُمْ**) أي الموجودين في ذلك الوقت من الكفار .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وانتهاء الوقت الذي يقبل فيه الإيمان من الكافر. أو الذي تنفع فيه التوبة.

والمعنى : إذا دنا وقت قيام الساعة ، وانتهى الوقت الذي ينفع فيه الإيمان أو التوبة ، أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا ، دابة من الأرض تكلمهم ، فيفهمون كلامها ، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب.

(**دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ**) دابة تدب على الأرض ، ولم يأت شيء صحيح عن صفتها ، فهي دابة يخرجها الله في آخر الزمان ، علامة من علامات الساعة الكبرى .

(**تُكَلِّمُهُمْ**) قيل : تخاطبهم مخاطبة ، وقيل : تجرحهم لقراءة (تَكْلَمهم) ، وقيل : كلاً تفعل ، يعني هذا وهذا ، قال ابن كثير :

وهو قول حسن .

(**أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ**) قيل : إن هذا من كلام الدابة للناس ، وقيل : بل هو من كلام الله .

- **قال ابن كثير** : وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق .
- ونحن نؤمن بأن هناك دابة تخرج في آخر الزمان ، وأنها تكلم الناس بكيفية يعلمها الله – عز وجل – أمّا ما يتعلق بالمكان الذي تخرج منه هذه الدابة ، وبالهيئة التي تكون عليها من حيث الطول والقصر ، فنكل ذلك إلى علمه – سبحانه – حيث لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في بيان ذلك.

الفوائد :

١– إثبات خروج الدابة في آخر الزمان ، علامة من علامات الساعة الكبرى .

مباحثها :

أولاً : أدلة خروجها :

هذه الآية .

عنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ « مَا تَذَاكَرُونَ » قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ) رواه مسلم .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ) .

ثانياً : من أي الدواب هي ؟

الدابة لغة : كل ما يدب على الأرض .

واصطلاحاً : دابة يُخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس على أنهم مستحقون للعذاب .

ثالثاً : مكان خروجها وصفتها ؟

ورد بعض الأحاديث أنها تكون من مكة من الحرم ، وورد غير ذلك ، ولا يصح من ذلك شيء .

وكذلك صفتها : ورد بعض الأحاديث في صفتها لا يصح منها شيء .

رابعاً : عملها :

قال تعالى (تكلم الناس) .

اختلف المفسرون في معنى هذا التكليم :

فقيل : أن المراد : تكلمهم كلاماً ، أي تخاطبهم مخاطبة ، ويدل لهذا قراءة (تنبئهم) .

وقيل : أن المراد : تجرحهم ، ويؤيد ذلك قراءة [تَكْلَمهم] بفتح التاء وسكون الكاف ، من الكَلْم وهو الجرح ، أي تسمهم وسماً .

وروي عن ابن عباس أنه قال : (كلاً تفعل) أي المخاطبة والوسم .

قال ابن كثير : وهو قول حسن ، ولا منافاة .

قال السعدي : وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة ، كما تكاثرت بذلك

الأحاديث ولم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة ، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها ، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلاما خارقا للعادة حين يقع القول على الناس ، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين وحجة على المعاندين .

٢- خروج الدابة إذا وقع القول على الناس وذلك بأن كفروا ،أعرضوا .

٣- أن هذه الدابة مبهمة ، فلا يعلم صفتها ولا من أين تخرج . وكل ما ورد في ذلك لا يصح .

٤- بيان قدرة الله حيث أن هذه الدابة تكلم الناس بكلام يفهمه الناس .

٥- بيان حكمة الله في الإنذار

٦- أن عدم اليقين سبب في عذاب الله .

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥)) .

[النمل : ٨٣- ٨٥] .

(**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً**) يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل؛ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا؛ تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً، فقال تعالى (**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً**) أي من كل أمة وقرن فوجاً أي : جماعة .

(**مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا**) أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ، كما قال تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) .

(**فَهُمْ يُوزَعُونَ**) قيل : يدفعون ، وقيل : ترد أولهم على آخرهم .

قال الرازي : أما قوله (فَهُمْ يُوزَعُونَ) معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار ، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك .

- والمعنى : واذكر – أيها العاقل لتعتبر وتتعظ – (يوم نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ من الأمم فَوْجاً) أي : جماعة من الذين كانوا يكذبون في الدنيا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي : فهم يقفون بين أيدينا ، داخرين صاغرين ، بحيث لا يتقدم أحد منهم على أحد ، وإنما يتحركون ويساقون إلى حيث نريد منهم ، ويتجمعون جميعاً ليلقوا مصيرهم المحتوم.

وأفرد – سبحانه – هؤلاء المكذبين بالذكر – مع أن الحشر يشمل الناس جميعاً – لإبراز الحال السيئة التي يكونون عليها عند ما يجمعون للحساب دون أن يشذ منهم أحد ، ودون أن يتحرك أولهم حتى يجتمع معه آخرهم ..

- **قال الشنقيطي** : ظاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ خُصُوصُ الْحَشْرِ بِهَذِهِ الْأَفْوَاجِ الْمُكَذِّبَةِ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى عُمُومِ الْحَشْرِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا بِقَلِيلٍ (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

ذَكَرْنَا قَوْلَ الْأَلُوسِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ قَوْلَهُ : (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) فِي الْحَشْرِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ النَّاسِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) فِي الْحَشْرِ الْخَاصِّ بِهَذِهِ الْأَفْوَاجِ الْمُكَذِّبَةِ ؛ لِأَجْلِ التَّوْبِيخِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ هُنَا (حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا الْآيَةَ) ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، كَمَا تَرَى .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذِهِ الْأَفْوَاجُ الَّتِي تُحْشَرُ حَشْرًا خَاصًّا هِيَ رُؤَسَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَقَادَتُهُمْ ، وَعَلَيْهِ فَالْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَوَرَبِّكَ

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) ، وَالْفَوْجُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : فَهُمْ يُوزَعُونَ ، أَيْ : يَرِدُ أَوَّلُهُمْ عَلَ آخِرِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ جَمِيعًا ، كَمَا قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ .

(**حَتَّى إِذَا جَاؤُوا**) ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة .

(**قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً**) أي قال الله تعالى موبخاً ومقرعاً لهم : أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر ولا تروٍ .

(**أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) تقريع وتوبيخ آخر : أيْ أيَّ شيء كنتم تعملون في الدنيا ؟

فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى (هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) .

(**وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ**) أي: بهتوا، فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته، والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه .

- الظَّاهِرُ أَنَّ الْقَوْلَ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِمْ هُوَ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، كَمَا يُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وقوله (**فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ**) كيف الجمع بين هذا وبين ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون كقوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا) وكقوله تعالى (فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

فالجواب :

الجواب الأول: أن مشاهد اليوم الآخر ومراحله كثيرة ، ففي بعضها يكون الكفار عمياً وبكماً وصُمّاً على الحقيقة ، وفي بعضها الآخر يرون ويتكلمون ويسمعون .

وهو قول أبي حيان وابن القيم وابن كثير والشنقيطي وغيرهم كثير

قال الإمام الطبري – رحمه الله: – فإن قال قائل : وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عمياً وبكماً وصُمّاً وقد قال (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) فأخبر أنهم يرون ، وقال (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟

قيل : جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة ، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخَر غير حال الحشر.

وقال ابن كثير – رحمه الله– وقوله : (عُمْيًا) أي : لا يبصرون (وَبُكْمًا) يعني : لا ينطقون (وَصُمًّا) : لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ؛ جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمّاً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه.

والجواب الثاني : أن النظر والكلام والسمع المثبت لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه ، والمنفي عنهم خاص بما لهم فيه فائدة ، فهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً يسرهم ، ولا ينطقون بحجة .

وهو مروي عن ابن عباس والحسن البصري.

قال الإمام الطبري – رحمه الله: – ويجوز أن يكون ذلك ، كما روي عن ابن عباس قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ

عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) ثم قال (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا) وقال (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) وقال (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) ، أما قوله (عُمْيا) : فلا يرون شيئا يسرّهم ، وقوله (بُكْما) : لا ينطقون بحجة ، وقوله (صُمًّا) : لا يسمعون شيئاً يسرّهم.

والقول الأول أظهر وأقوى .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله – في ذكر وجوه الجمع بين ذلك :

قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّا) الآية، هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يُبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصمّاً، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)، وكقوله (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)، وكقوله (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً) الآية، والجواب عن هذا من أوجه:

الوجه الأول : هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته ، ويكون ذلك في مبدأ الأمر ، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم ، فيرون النار ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني : أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ، ولا يسمعون كذلك ، ولا ينطقون بحجة ، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه ، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي في تفسيره ، فنزَّل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره.

الوجه الثالث : أن الله إذا قال لهم (اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ) وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج ، قال تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ) ، وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدَّرة.

قال : أظهرها عندي : الأول.

وقد فصَّل ابن القيم رحمه الله الحال الذي يُحشرون فيه على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً وهو من موقف الحشر إلى وقت دخولهم النار ، وأنهم يكونون قبل ذلك يرون ويتكلمون ويسمعون.

قال ابن القيم – رحمه الله: – وفصل الخطاب : أن الحشر هو الضم والجمع ، ويراد به تارة : الحشر إلى موقف القيامة كقوله النبي ﷺ (إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً) وكقوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) ، وكقوله تعالى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) يراد به : الضم والجمع إلى دار المستقر ، فحشر المتقين : جمعهم وضمهم إلى الجنة ، وحشر الكافرين : جمعُهم وضمُّهم إلى النار ، قال تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً) ، وقال تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار ؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا (يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) ثم قال تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) وهذا الحشر الثاني ، وعلى هذا : فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار ، فعند الحشر الأول : يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون ، وعند الحشر الثاني : يُحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً ، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته ، فالقرآن يصدّق بعضُه بعضاً ، (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً .

الفوائد :

١- إثبات الحشر .

٢- أن الله يحشر من كل أمة جماعة وهم أشدهم كفراً وطغياناً .

٣- عظم الإمامة في السوء .

٤- أن التكذيب بالآيات كفر .

٥- إثبات الكلام لله تعالى .

٦- إثبات الأسباب لقوله (بما ظلموا ....) . (١٨ / رمضان / ١٤٣٦هـ) .

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)) .

[النمل : ٨٦] .

(**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ**) أي: في ظلام الليل؛ لتسكن حركاتهم بسببه، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم .

- ليسكنوا : اللام للتعليل .
- ألم يروا : رؤية علمية وبصرية . والهمزة للتقرير .

(**وَالنَّهَارَ مُبْصِراً**) أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) أي : إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمة إلى نور ، لآيات باهرة ، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقوم يصدقون فيعتبرون .

- لآيات : عدة آيات : إظلام الليل والسكون فيه ، وإبصار النهار والتصرف فيه .
- وقد ذكر الله هذه الآيات في مواضع كثيرة من القرآن .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، أَيْ عَلَامَتَيْنِ دَالَّتَيْنِ عَلَى أَنَّهُ الرَّبُّ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ ، وَلَا يُشْرَكُ مَعَهُ غَيْرُهُ ، وَكَرَّرَ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ) .

وَقَوْلِهِ (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وَقَوْلِهِ : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ - إِلَى قَوْلِهِ - لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

وَقَالَ تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) .

وقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) يَعْنِي أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا لِلْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ ، وَالنَّهَارَ مُضِيئًا مُنَاسِبًا لِلْحَرَكَةِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا ، فَيَسْعَوْنَ فِي مَعَاشِهِمْ فِي النَّهَارِ ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ تَعَبِ الْعَمَلِ بِاللَّيْلِ ، وَلَوْ كَانَ الزَّمَنُ كُلُّهُ لَيْلًا لَصَعُبَ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ فِي مَعَاشِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ نَهَارًا لَأَهْلَكَهُمُ التَّعَبُ مِنْ دَوَامِ الْعَمَلِ .

فَكَمَا أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا ، فَهُمَا أَيْضًا نِعْمَتَانِ مَنْ نِعَمِهِ جَلَّ وَعَلَا .

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى الْمُشَارَ إِلَيْهِ هُنَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ .

كَقَوْلِهِ تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

فَقَوْلُهُ (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) أَيْ فِي اللَّيْلِ ، وَقَوْلُهُ (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أَيْ فِي النَّهَارِ .

وَقَوْلُهُ (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) .

وَقَوْلُهُ تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) .

وَقَوْلُهُ (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) .

- لما قال : (جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ) فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه ؟ جوابه : لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل ، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية.

الفوائد :

١- أن من آيات الله الباهرة الليل والنهار .

٢-حكمة الله في توزيع الأوقات .

٣- أن أفعال كلها لحكمة .

٤- أنه كلما قوي إيمان الإنسان تأثر واعتبر بالآيات .

٥- فضل الإيمان بالله .

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

[النمل : ٨٧ – ٨٨] .

(**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**) أي واذكر يوم ينفخ في الصور ، والملك الذي ينفخ هو إسرافيل .

- الصور : قرن ينفخ فيه .
- قال ابن عطية : وهو القرن في قول جمهور الأمة ، وهو مقتضى الأحاديث ، وقال مجاهد : هو كهيئة البوق ، وقالت فرقة : " الصور " جمع صورة كتمرة وتمر وجمرة وجمر والأول أشهر .

(**فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ**) أي : لا يبقى أحد إلا فزع وصعق إلا من شاء الله ، كما قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُون) .

- **قال الرازي:** أما قوله (فَفَزِعَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض) فاعلم أنه إنما قال (ففزع) ولم يقل فيفزع للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى.
- مباحث الصور :

أولاً : تعريف الصور :

الصور : هو القرن الذي ينفخ فيه ملَك الصور لإماتة الخلق ثم إحيائهم .

كما في حديث عبد الله بن عمرو . عن النبي ﷺ قال (الصور قرن ينفخ فيه) رواه الترمذي .

ثانياً : النفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

وقال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

وقال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) .

وقال تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : (قرن ينفخ فيه) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ... ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) رواه مسلم .

وأجمع المسلمون على ثبوته .

ثالثاً : النافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام .

وهذا هو المشهور ، وقد نقل بعض العلماء الإجماع على ذلك .

- **قال ابن جرير** : والصواب من القول في ذلك عندنا : ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ .... .
- **وقال القرطبي** : والصحيح في الصور أنه قرن ..... ينفخ فيه إسرافيل .

رابعاً : عدد النفخات :

اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين :

القول الأول : أنها نفختان : نفخة الصعق ونفخة البعث .

فالأولى يحصل بها الفزع والصعق ، والثانية : يحي الله بها الخلائق .

واختار هذا القول : ابن حجر ، والقرطبي .

ويدل لهذا قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

فقوله تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ) . هذه النفخة الأولى .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) هذه هي النفخة الثانية .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبي هريرة : أربعين يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة : قال : أبيت) . متفق عليه

قال القرطبي : والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمر ويدلّ على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب "التذكرة" وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إلاَّ مَن شَآءَ الله) فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدلّ على أنهما واحدة.

القول الثاني : أنها ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

واختار هذا القول : ابن تيمية ، وابن كثير ، والسفاريني ، والشوكاني .

واحتجوا : في قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وهذه نفخة الفزع .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ...) هذه نفخة الصعق .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) هذه نفخة البعث .

قالوا : إن الفزع مغاير للصعق .

والأول أرجح .

خامساً : صاحب الصور مستعد للنفخ .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ ، فينفخ) رواه الترمذي .

سادساً : المستثنون من الفزع والصعق .

قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ...) .

- اختلف العلماء في المستثنى من الفزع والصعق على أقوال :

قيل : الموتى كلهم ، لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون .

واختاره القرطبي في المفهم .

وقيل : هم الشهداء .

واختاره القرطبي صاحب التذكرة .

وقيل : الأنبياء .

وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت .

وقيل : موسى وحده .

وقيل : هم خُزان الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب .

وقيل : الملائكة كلهم وحور العين .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (إِلاَّ مَنْ شاء اللهُ) ثلاثة أقوال:

أحدها : أنهم الشهداء ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير.

والثاني : جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، ثم إن الله تعالى يميتهم بعد ذلك ، قاله مقاتل.

والثالث : أنهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن ، وكذلك مَن في النار ، لأنهم خُلقوا للبقاء ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا.

سابعاً : مقدار ما بين النفختين :

تقدم حديث أبي هريرة . أن النبي ﷺ قال : (ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبي هريرة : أربعين يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة : قال : أبيت) . متفق عليه

القول الأول : أربعون يوماً أو شهراً أو سنة .

القول الثاني : أربعون سنة .

القول الثالث : أربعون أسبوعاً .

والراجح الأول من غير تحديد يوم أو شهر أو سنة ، لحديث أبي هريرة .

- **واختلف في سبب إبائه ﷺ على أقوال :**

قيل : إنه امتنع من بيانه لعدم علمه به ، فلم يرد الخوض فيه بالرأي .

وقيل : إنه أراد أنه امتنع عن سؤال النبي ﷺ عن تفسيره .

وقيل : إنه امتنع عن بيانه مع أنه عنده علم منه ، ولكنه لم يفسره لأنه لم تدع الحاجة إلى بيانه ، واستظهره القرطبي .

وقيل : إنه سكت ليخبرهم في وقت آخر ثم اشتغل عن الإعلام .

والأقرب الأول – والله أعلم – .

(**إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ**) اختلف في هذا المستثنى ، فقيل : جبريل ، وقيل : الشهداء ، وقيل غير ذلك ، وما دام أن الله أبهمه ولم يبينه فينبغي علينا أن نقف عنده ولا نتكلم فيه ، وتقدم ذلك .

(**وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**) أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً) .

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) .

(**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**) أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي تزول عن أماكنها .

وهذا يوم القيامة :

كما قال تعالى (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) .

وقال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ) .

- قول بعضهم : إن هذا في الدنيا قول ضعيف لا يصح .
- قال الشنقيطي : وَإِيضَاحُ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِبَالَ الْآنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا يَحْسَبُهَا رَائِيهَا جَامِدَةً ، أَيْ : وَاقِفَةً سَاكِنَةً غَيْرَ مُتَحَرِّكَةٍ ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .

ثم بيّن رحمه الله بطلان هذا القول من وجهين، **فقال** :

وَهُوَ وُجُودُ الْقَرِينَةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ صِحَّتِهِ، فَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: وَتَرَى الْجِبَالَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: فَفَزِعَ، وَذَلِكَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ مُرَتَّبٌ بِالْفَاءِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ) أَيْ: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَفْزَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَتَرَى الْجِبَالَ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْقَرِينَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى أَنَّ مَرَّ الْجِبَالِ مَرَّ السَّحَابِ كَائِنٌ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، لَا الْآنَ .

وَأَمَّا الثَّانِي : وَهُوَ كَوْنُ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ فَوَاضِحٌ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا حَرَكَةُ الْجِبَالِ كُلُّهَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) .

(**صُنْعَ اللَّهِ**) أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة .

(**الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**) أي أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

(**إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**) أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

الفوائد :

١- إثبات النفخ في الصور والنافخ هو إسرافيل .

٢- أن هذا النفخ عظيم لأنه مفزع .

٣- هناك من يبقى لا يفزع ، لكنه مبهم لنا لا نعلمه .

٤- كمال الربوبية والسلطان لله .

٥- أن كل أحد يأتي يوم القيامة صاغراً لله ذليلاً .

٦- شدة أهوال يوم القيامة .

٧- أن ما يحدث للجبال في الدنيا والآخرة من صنع الله العليم الخبير الحكيم .

٨- أن الله متقن لكل شيء من الأحكام والخلق .

٩- كمال علم الله ، لأنه خبير ببواطن الأمور ، ومن يعلم بواطن الأمور يعلم علانيتها من باب أولى .

(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

[النمل : ٨٩- ٩٠] .

(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا) أي : يثيبه الله ويضاعف له .

ذهب كثير من العلماء إلى أن المراد بالحسنة هنا الإيمان والتوحيد .

ولذلك عبر بعضهم بقوله : لا إله إلا الله ، وبعضهم قال : بالتوحيد ، وبعضهم قال : بالإيمان .

- والذي يأتي بالحسنات – جنس الحسنات قولية أو فعلية – فله خير منها حيث يضاعفها الله له إلى عشر حسنات كما قال تعالى (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

فقوله تعالى (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) أي : من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عليها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً ، وهو أقل المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة ضعف

وفي الصحيحين : عبدِ اللهِ بنِ عباسِ بنِ عبد المطلب رضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسُول الله ﷺ ، فيما يروي عن ربهِ ، تباركَ وتعالى ، قَالَ: « إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً ،وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

- والحسنة شرعاً : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب الحسن ، وهي كل ما أمر به الشرع .

والسيئة شرعا : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب السيئ ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم .

- وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل .

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) رواه مسلم

وفي حديث الصيام (قال تعالى : إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه .

- **قال النووي** : التَّضْعِيف بِعَشْرَةِ أَمْثَالهَا لَا بُدّ بِفَضْلِ اللَّه وَرَحْمَته وَوَعْده الَّذِي لَا يُخْلَف ، وَالزِّيَادَة بَعْد بِكَثْرَةِ التَّضْعِيف إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْف ، وَإِلَى أَضْعَاف كَثِيرَة ، يَحْصُل لِبَعْضِ النَّاس دُون بَعْض عَلَى حَسَب مَشِيئَته سُبْحَانه وَتَعَالَى .
- **وقال ابن رجب** : إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام ، ويكون بحسب كمال الإخلاص ، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه ، وبحسب الحاجة إليه .
- **وقال ابن حجر** : وهذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب وتعدى النفع كالصدقة الجارية والعلم النافع والسنة الحسنة وشرف العمل ونحو ذلك
- **وقال الشيخ ابن عثيمين** : (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء ضـاعف هذا ، وإن شاء لم يضاعف .
- **قال ابن تيمية** : وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا **فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها** .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك ، **فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص** ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، **وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له** .

وقال : والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس بمجرد صورها الظاهرة ، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً .

وقال رحمه الله : والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله ، فيغفر الله له به كبائر ، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقال : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : لا ظلم عليك ، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه ، والسجلات في كفة ، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات) .

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجّح قول صاحب البطاقة .

(**وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**) بشارة للمؤمنين الذين جاءوا بالحسنات ، بالأمان والاطمئنان.

أي : وهم من الفزع الكائن للناس في يوم البعث والحساب ، آمنون .

كما قال تعالى (لا يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) .

وقال تعالى (أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) .

(**وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ**) أي بالشرك ، أي من جاء يوم القيامة مشركاً بالله تعالى .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ومَنْ جاء بالسَّيِّئة) قال المفسرون هي الشِّرك .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَمَن جَآءَ بالسيئة) أي : بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن ، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك في هذه الآية.
- **وقال الشوكاني** : قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم حتى قيل : إنه مجمع عليه بين أهل التأويل : إن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، ووجه التخصيص قوله (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار) فهذا الجزاء لا يكون إلاّ بمثل سيئة الشرك

(**فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**) أي ألقوا في النار على وجوههم .

كما قال تعالى (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار) أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين ، فإسناد الكب إلى الوجوه مجازي لأنه يقال كبه وأكبه إذا نكسه ، وقيل : يجوز أن يراد بالوجوه الأنفس كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى (وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة) أي فكبت أنفسهم في النار .
- **وقال الشوكاني** : ومعنى (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار) أنهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال : كببت الرجل : إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ .

(**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي يقال لهم توبيخاً : هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال .

- **قال الشنقيطي** : وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين :

الأول : أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيئة كالشرك يكب وجهه في النار .

الثاني : أن السيئة إنما تجزى بمثلها من غير زيادة .

كما قال تعالى (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

الفوائد :

١- أن الحسنات يؤتى بها يوم القيامة .

٢- فضل التوحيد والإيمان .

٣- أن التوحيد أعظم الحسنات .

٤- سعة رحمة الله بمضاعفته الحسنات .

٥- إثبات الفزع يوم القيامة .

٦- من جاء بالحسنة يأمن من الفزع بخلاف من جاء بالسيئة .

٧- أن المشرك مخلد في النار .

٨- أن الشرك أعظم الذنوب .

٩- أن المشرك حرام عليه الجنة .

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول :

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا) إنما أمرتُ أن أخص الله وحده بالعبادة رب البلد الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد .

كما قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ) .

- وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) .
- قوله (الذي حرمها) أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها ، كما قال ﷺ (يوم الفتح مكة : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ...) .
- **قال ابن جرير** : وإنما قال جلّ ثناؤه (رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا) فخصها بالذكر دون سائر البلدان ، وهو رب البلاد كلها، لأنه أراد تعريف المشركين من قوم رسول الله ﷺ الذين هم أهل مكة، بذلك نعمته عليهم، وإحسانه إليهم، وأن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه هو الذي حرّم بلدهم، فمنع الناس منهم، وهم في سائر البلاد يأكل بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً .
- **قال الرازي** : أما قوله (الذي حَرَّمَهَا) فقرئ (التي حرمها) ، وإنما وصفها بالتحريم لوجوه :

أحدها : أنه حرم فيها أشياء على من يحج .

وثانيها : أن اللاجئ إليها آمن .

وثالثها : لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى ، فكأنه قال لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولي لهذه النعم وجب عليَّ أن أخصه بالعبادة .

- **قال ابن عطية** : وفي قوله (حرمها) تعديد نعمته على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب .
- **قال أبو حيان** : والبلدة : مكة ، وأسند التحريم إليه تشريفاً لها واختصاصاً ، ولا تعارض بين قوله : (الذي حرمها) ، وقوله عليه السلام : " إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة " ، لأن إسناد ذلك إلى الله من حيث كان بقضائه وسابق علمه ، وإسناده إلى إبراهيم من حيث كان ظهور ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأمته.

(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) من باب عطف العام على الخاص ، أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) يعني ملك كل شيء مما أحله وحرمه فيحل منه ما شاء ويحرم منه ما شاء لأن للمالك أن يفعل في ملكه ما يشاء.

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ) أي على الناس أبلغهم إياه .

أي : وأمرني أن أتلو القرآن على مسامعكم ، لأنه هو معجزتي الدالة على صدقي.

كما قال تعالى (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) .

- **قال الآلوسي** : أي أواظب على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنيته الإرشاد لكفايته في الهداية إلى طريق الرشاد ، وقيل أي أواظب على قراءته لينكشف لي حقائقه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً فإن المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية، وقد حكي أنه ﷺ قام ليلة يصلي فقرأ قوله تعالى (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر حتى طلع الفجر، وقيل أتلو من تلاه إذا تبعه، أي وأن أتبع القرآن، وهو خلاف الظاهر .

(**فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**) نفعه يعود عليه ، وثمرته عائدة إليه .

- **قال في الوسيط** : فَمَنِ اهْتَدى إلى الحق الذي جئته به، وبينته له فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أي: فإن منافع هدايته تعود إلى نفسه.

(**وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ**) أي : ومن ضل عن الهدى بعد أن نصحته وأرشدته ، فقد أمرني ربي أن أقول له : إنما أنا من المنذرين للضالين بسوء العاقبة ، ولست عليهم بحفيظ ، أو بمكره إياهم على الإيمان.

أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى . كما قال تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال تعالى (إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) .

(**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**) أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

(**سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا**) معرفة تدلكم على الحق والباطل ، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة) .

- **قال في الوسيط** : أي ، وقل – أيها الرسول الكريم – للناس : الثناء كله ، والفضل كله ، لله – تعالى – وحده. وهو – سبحانه – سَيُرِيكُمْ آياتِهِ الدالة على وحدانيته وقدرته فَتَعْرِفُونَها؛ أي : فتعرفون صدقها ..

وصدق الله – عز وجل – ففي كل يوم ، بل في كل ساعة ، يرى عباده بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، في أنفسهم ، وفي آفاق هذا الكون وما أحكم قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.

(**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) بل هو شهيد على كل شيء ، لا يخفي عليه شيء من أعمال العباد ، وهذا لكمال علمه واطلاعه سبحانه وتعالى .

- الآية فيها وعد ووعيد .
- **قال القاسمي** : وقوله تعالى (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى. فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد .
- والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها ، فالله لا يغفل لكمال علمه .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تعالى .

٢- وجوب إعلان عبادة الله وحده إذا احتاج إلى ذلك .

٣- وجوب التبرؤ من الشرك وأهله .

٤- فضل مكة وشرفها .

٥- أن كل شيء بأمر الله .

٦- الأمر بتلاوة القرآن وتدبره والعمل به .

٧- أن الهداية بيد الله .

٨- أن من اهتدى فإنها يهتدي لنفسه ، فخيرها وفضلها راجع لنفسه .

٩- أن الله غني عن العالمين .

١٠- أن الإنسان عليه دعوة الخلق وليس عليه هدايتهم .

١١- أن الإنسان إذا بلغ دين الله للناس وعارضوه ، ينبغي أن يقول لهم : إنما أنا منذر .

١٢- وجوب إنذار العصاة والطغاة عذاب الله .

١٣- حمد لله على نعمه الله العظيمة وأعظمها إرسال الرسل .

١٤- أن الله عز وجل يري عباده آياته ليؤمنوا ويقروا بوحدانيته وألوهيته .

١٥- أن الله لا يغفل عن شيء لكمال علمه .

٢١رمضان ١٤٣٦هـ

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

الشيخ

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net